أفروديت

كتاب يعنى بالإبداع

(شعر، نقد، قصة، تشكيل، رواية...)

كـتاب : قناص ببندقية من ورق ..إطلالـة علـى طرائد الشاعر عبد الرحيم الخصار

المؤلفـة : نجـــاة الـزبـايـر

الطبعـة : الأولى 2022م

رقم الإيداع القانوني:2021MO1187

ردمـــــد: 1323/ 2028

ردمـــك: 978-9954-9553-2-1

تصميم الغلاف والإخراج: أفروديت

المطبعـة :

المطبعة والوراقة الوطنية
IMPRIMERIE PAPETERIE EL WATANYA
زنقة أبو عبيدة الحي المحمدي الداوديات
مراكش - الهاتف : 74 37 30 24 05 - 91 25 30 24 05
الفاكس : 23 49 30 24 05 e-mail: iwatanya@gmail.com

قناص ببندقية من ورق

نجاة الزباير

العنوان
أملكيس 2 فيلا رقم 241 سيبع / مراكش
الهاتف : 06 38 96 45 83
Email : aphroditenajat@gmail.com

تقديـــم

ديوان الشعر المغربي المعاصر غني بأسماء حفرت مجرى متميزا في خريطة الشعر المغربي والعربي، فتلاقحه مع ثقافات ولغات مختلفة؛ عربية وأجنبية، جعلته يطوف جغرافيات معرفية متعددة.

فـ"لم يَعد النص الشعري في إطار التجربة الشعرية المغربية المُعاصرة نصاً واحداً ثابتاً ومعلوماً، وإنما أصبح نصاً متغيراً باستمرار، يخضع لفلسفة الشاعر وقدرته على الترويض أكثر. أصبح نصاً مفتوحاً ومغايراً لسابقيه".(1).

ومن خلال التراكمات الشعرية المتنوعة، تم إفراز أصوات تتوهج داخل مسكن الكتابة. لأن"ما يحكم مغامرة الراهن الشعري بالمغرب هو الاختلاف والتعدُّد، بسبب ما يحفل به المشهد الشعري من تعدُّد مثمر وحياة خصيبة وواعدة، ومن ثراء المتن الشعري المغربي المعاصر كمّاً ونوعاً، وتجاذب منتجيه من كلّ أعمار الكتابة وجمالياتها ورؤاها للذّات والطبيعة والعالم".(2).

ومن بين هؤلاء الشعراء؛ عبد الرحيم الخصار، الذي يكتب بألوان الطيف قصائده كأحد فرسان قصيدة النثر، التي "تمظهرت بأشكال ورؤى متباينة ونهلت من منابع متعددة؛ فهي تجربة تتقاطع فيها النصوص الطويلة والقصيرة، ويتداخل فيها الغنائي والسردي، الدرامي والتشكيلي، ويتشابك فيها الذاتي والإنساني. (3)

فهو من "الذين أبانوا من خلال اجتهاداتهم واقتراحاتهم النصية، عن وعيهم باشتراطات الحساسية الجديدة، فانحازوا إلى شعريّتها المختلفة التي تقوم على تنوّع الرؤى وتمايزها، بنسب محدّدة، عمّا سبقها، وتكشف عن تحوُّل في الحسّ الجمالي، وفي مفهوم الذات والنظر إلى العالم، وفي تقنيات التعبير الفني للقصيدة خاصة، وللكتابة عامّة". (4)

إنه ذلك القناص القادم من أقاصي المعاني، والذي أوقد نار شعره للقارىء، واضعا أمامه طرائده التي سقطت من سماء تجربته الغنية بالإحساس الشفيف. "أنا مدين للأدب الجيد الذي قرأتُه."(5) يقول.

هذا الشاعر الذي راهن على انتصار الجمال على القبح، وبسط في شعره حلمه الذي حلَّقَ عبرَ الحضارات، كي يقربنا من وجوده الشعري المسكون برؤيته العميقة نحو الإنسان والكون.

إذ يحاول إعادة بناء عوالمه من خلال حضور الذات القلقة التي كانت آلة تواصل بين هويته الثقافية والإنسانية.

فكلما فتح دفاتره أصغى الصمتُ، ونثرتْ أشعاره أزهار البيلسان التي تسكن الروح. وكأنه يقول كما في مطلع إحدى الأغنيات الشهيرة للسيدة فيروز (وحدن بيبقوا مثل زهر البيلسان).(6)

ويعتبر الشاعر المتميز عبد الرحيم الخصار مثل بحَّار هادئ وسط ضجيج الحياة، ينقل إلينا صخب روحه في قصائده، وهو يعزف على أوتار الاختلاف عوالمَه التي تحمل رؤاه الخاصة.

أو ليست اللغة هي مرآة الشاعر؟

يقول: "أكتب على الورق تفاصيل من حياة عشتها وأعيشها. أفكاري الصغيرة وأحلامي وهواجسي ومخاوفي، تفاصيل الحياة ونظرتي إلى هذه التفاصيل كلها أشياء تتحول من طين إلى آنية فخار داخل المسكن الشعري."(7)، لأن "كلّ ما نخلع عليه إحساسنا، ونفيض عليه من خيالنا، ونتخيله بوعينا، ونبثُّ فيه من هواجسنا، وأحلامنا ومخاوفنا، هو شعر وموضوع للشعر لأنه حياة وموضوع للحياة).(8)

هكذا قررنا من خلال هذا العدد من كتاب أفروديت، الولوج إلى بعض غرف هذا الشاعر الموهوب الذي جعلنا نُرْهِف السمع لموسيقاه، حيث وضع تحت مجهر الشعر تفاصيل بحثه المضني عن الحلم المفقود، وهذا ما جعل من الألم وقودا لشعره.

"فأن نقرأ يعني أن نخترق، أن نتملك، أن نسافر في فكر ـ الشاعر وخياله، أن يخترق العملَ بصرُنا، أو نتسلل إليه، أن يخترقنا صوته الشعري، أن يتكلم نيابة عنا، أو نتكلم نيابة عنه، أو بصوته.(9)

فكانت رحلتنا داخل دواوينه التالية:

(عودة آدم، نيران صديقة، أنظر وأكتفي بالنظر، وبيت بعيد.)

الهـوامش

1. عبد الحق وفاق، "آليات الكتابة والتعبير في القصيدة المغربية المعاصرة"
https://tarbawiyat20.blogspot.com/2020/11/blog-post_22.html
2. د. عبد اللطيف الوراري، "من الجيل إلى الحساسية: في راهن الشّعر المغربي وجماليّاته الجديدة"
https://www.anfasse.org/index.php/2010-12-30-15-40-11/2010-12-30-15-36-49/5141-2013-11-17-23-08-24
3. عبد الله رشيق. في شعرية قصيدة النثر، منشورات اتحاد كتاب المغرب. ص:41.
4. د. عبد اللطيف الوراري، مرجع سابق.
5. صفحة الشاعر عبد الرحيم الخصار الرسمية فيسبوك
6. الكلمات للشاعر طلال حيدر ولحنها زياد الرحباني
7. "الاتحـــاد الاشتراكـــي" 2017/08/02 حاورتـــه: شهـــرزاد عجـــرودي
http://alittihad.info/ الشاعر–عبد–الرحيم–الخصار–للاتحاد.
8. أدونيس (علي أحمد سعيد)، مقدمة للشّعر العربي، الطّبعة الأولى، بيروت، دار العودة 1971، ص 127-126.
9. خالدة سعيد، فيض المعنى، دار الساقي، الطبعة الأولى 2014، ص:12.

إضاءات

وأنت تَعْدُو بخُفَّيـنِ منْ عطَشٍ فوقَ قصائدهِ
تأملْ كيفَ يجْري نهرُ الجَمالِ بين أصَابعـهِ
وقل لي: هل انتشيتَ مِثْلِي منْ سِحْرِ شعرهِ؟

شاعر وكاتب، أستاذ.

- عضو اتحاد كتاب المغرب.
- عضو بيت الشعر بالمغرب.
- الكاتب العام لفرع اتحاد كتاب المغرب (آسفي).
- مدير مهرجان ايقاعات– آسفي.
- كاتب بالقسم الثقافي لجريدة النهار اللبنانية من 2006 إلى 2010.
- حاليا – كاتب بالقسم الثقافي لجريدة السفير اللبنانية.
- عضو تحرير مجلة نماذج – لندن 2009 (توقفت).
- عضو تحرير مجلة "الثقافة الجنوبية" بالمغرب.
- كاتب عمود أسبوعي "الجريدة الأولى" في المغرب–2008–2010.

بعض المشاركات

- المهرجان الدولي للزجل 2006.
- اليوم العالمي للشعر، اتحاد كتاب المغرب 2007.
- الملتقى العربي للمرأة والكتابة، 2007.
- المهرجان الوطني للشعر المغربي الحديث، شفشاون 2007.
- المعرض الدولي للكتاب بالدار البيضاء 2008.
- مهرجان علي صدقي عبد القادر، طرابلس، ليبيا 2009.
- مهرجان أصوات المتوسط، لوديف، فرنسا 2009.
- اليوم العالمي للشعر، بيت الشعر 2010.
- تظاهرة بيروت 39، لبنان 2010.
- المهرجان الوطني للمسرح المحترف، الجزائر 2010.
- الملتقى الأول لقصيدة النثر، مراكش 2011.
- مهرجان شبّاك: شاعر في المدينة، لندن، بريطانيا 2011.

- قراءات في جامعة سويت برير، فرجينيا، أمريكا 2011.
- مهرجان القرين الثقافي، الكويت 2012.
- قراءات في مكتبة دجيراسي، سان فرانسيكو، أمريكا 2012.
- بينالي مراكش الدولي، المغرب 2012.
- قراءات في مؤسسة راكَدال– لاك فورست، شيكاغو، أمريكا 2013.
- المهرجان الفرنسي أصوات حية للشعر المتوسطي، الجديدة 2013.
- مهرجان مقام، بيت الشعر التونسي 2014.
- مهرجان أصوات حية، سيت، فرنسا 2014.
- المعرض الدولي للكتاب بالدار البيضاء 2016.
- المعرض الدولي للكتاب بأبوظبي 2017.
- ربيع الشعر، البحرين 2019.
- مهرجان سيدي بوسعيد للشعر 2019.

الإقامات الثقافية

- إقامة أدبية بفرجينيا، أمريكا خريف 2011.
- إقامة أدبية بكاليفورنيا، أمريكا صيف 2012.
- إقامة أدبية بشيكاغو، أمريكا ربيع 2013.

الجوائز

- جائزة بيروت 39–أفضل 39 كاتبا عربيا دون سن الأربعين– إشراف منظمة هاي فستفال بريطانيا 2010.
- جائزة بلند الحيدري للشعر (منتدى أصيلة الدولي2011).
- جائزة البحر الأبيض المتوسط للشعر. قصر فيرينس. روما. إيطاليا. قسم الشعر العربي 2021.
- جائزة حلمي سالم للشعر في دورتها الجديدة (المركز الثاني) 2022.

اهتمام نقدي

• كتب عن التجربة الشعرية والثقافية لعبد الرحيم الخصار عدد مهم من الكتاب والنقاد العرب في عدد من المجلات والجرائد العربية، من بينهم: صلاح حسن، مهدي النفري (العراق –(بول شاؤول، ريتا بدورة (لبنان)– حسين بن حمزة، عماد الدين موسى (سوريا)–علاء الديب، فاطمة ناعوت، محمد الحمامصي، محمد عيد إبراهيم، إيهاب خليفة (مصر)– صلاح بوسريف، بوشعيب الساوري، عائشة عمور، نور الدين محقق، عبد العزيز الراشدي، محمد الخضيري، يونس الحيول، محمد المسعودي، عبد الحق ميفراني، عبد اللطيف الوراري، محمد الأزرق، عبد الغني فوزي، سعيد السوقايلي (المغرب). راسم المدهون (فلسطين) أشرف القرقني (تونس) هدى أشكناني (الكويت) عبد الله السفر (السعودية) أحمد زنيبر (المغرب) ...

صدر لـه :

• أخيرا وصل الشتاء، شعر، المغرب 2004.

• أنظر وأكتفي بالنظر، شعر، المغرب 2007.

صدرت النسخة الإسبانية في أكتوبر 2019 بمدريد ترجمة: عبد الله توتي. دار النشر Diwan Mayrit.

• نيران صديقة، شعر، لبنان 2009.

• بيت بعيد، شعر، مصر. 2013.

• عودة آدم، شعر، إيطاليا 2018.

• القبطان البري منشورات المتوسط – ميلانو 2020.

• عداء المسافات القصيرة –منشورات مقاربات 2021.

• "قنّاص الأوهام". مختارات شعرية نقلها إلى الفارسية الشاعر العراقي المقيم في هولندا محمد الأمين الكرخي. الناشر: صادق رحماني. دار همساية. طهران. 2022.

•العزلة فرد من العائلة، مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية 2022.

•خريف فرجينيا، رحلات إلى أمريكا وأوروبا، المغرب 2017.

صدرت نسخته الفرنسية بترجمة المغربي محمد حمودان المقيم في فرنسا 2019.

•رواية جزيرة البكاء الطّويل. (عن حياة استيفانيكو/ (مصطفى الأزموري). الناشر: المتوسط. إيطاليا 2022.

•وله عدد من المؤلفات المشتركة حول رموز الثقافة في المغرب والعالم العربي.

•كاتب متعاون بالقسم الثقافي للصحافة اللبنانية (النهار ثم السفير ثم الأخبار).

•ترجمت نصوصه إلى عدد من اللغات: الفرنسية، الإسبانية، الإنجليزية، الألمانية، السويدية، البلغارية والفارسية.

"الشاعر والفيلسوف روحان حلتا بدنا. الفلسفة الفردية هي المقود الخشبي المتين الذي يدير سفينة الكتابة.. أعتقد بأن كل شاعر كبير يسكنه فيلسوف كبير، فيلسوف غير معني بالأفكار والنظريات التي تنتجها الكتب، بقدر ما هو معني بالأفكار التي نبت لها الريش في حدائقه الداخلية."

–

* من حوار أجرته مع الشاعر (الشاعرة هدى أشكناني). الجريدة الكويتية الطليعة. 27 نوبر,2013

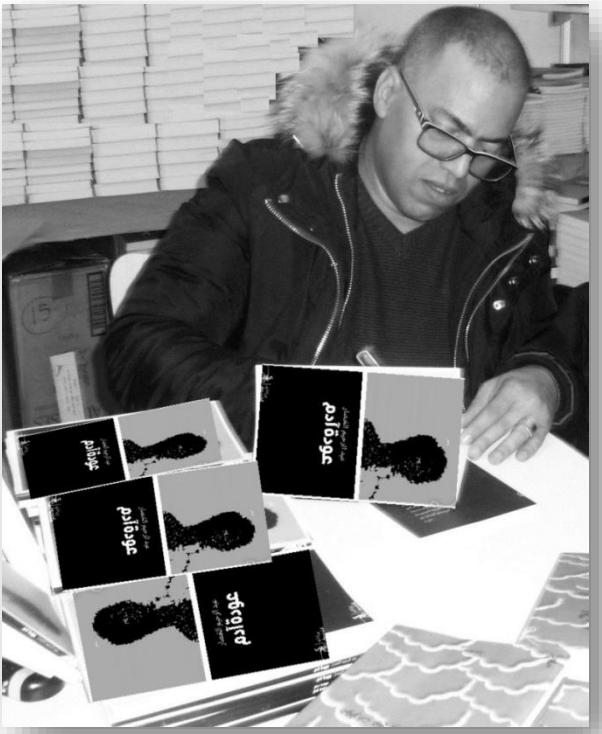

الطريدة الأولى

الصعود نحو شلالات المعنى

من خلال ديوان "عودة آدم"

شظايا من رصاص البداية

أولت دراسات متعددة أهمية بالغة لإشكالية علاقة الشعر بالفلسفة، ويعدُّ مارتن هيدجر من أبرز من تناول هذه العلاقة.

يقول: "إن اللغة هي التي وضعت الإنسان في التاريخ، وإن الطبيعة لتستيقظ، والروح تتجلى حين يحضر الشعر. إن الشعراء يسمون الأشياء التي يعنونها، وبهذه التسمية أعانوا الإنسان على أن يتحقق لأول مرة في التاريخ: كيف وضع العالم؟، وكيف اتصل بالأشياء من حوله؟، وإذا كان الأمر كذلك: فالشعراء يستطيعون، بحسن اختيارهم للألفاظ أن يقيموا معايير الوجود الإنساني ومقاييسه".(1)

ويرى الكاتب الفرنسي كريستيان دوميه في كتابه "جنوح الفلاسفة الشعري أن "إشكالية العلاقة بين الفلسفة والشعر قديمة ترقى إلى مشهد صوره أفلاطون في الكتاب الثالث من الجمهورية، حين طالب بطرد الشعراء خارج مدينته الفاضلة، بذريعة أنهم يحرفون الفكر عن درب الحقيقة، من خلال إخضاعه لإغراء الصور المضللة إذ ربط المعرفة بالفلسفة ووسم الشعر بالعاطفة والعالم الحسي، فجعله بذلك نقيضا للفلسفة وعدوها اللدود."(2) فكانت هذه أول إشكالية تنشأ بين الشعر والفلسفة.

وكما يقول أحد النقاد، فقد كان على الشعر من وقتها الدفاع عن ذاته، وتقديم الأطروحة التي تبقيه حياً في شخصية العالم، وكان على الشعراء حذف تهمة التشويش على عقول البشرية. (3)

هذه العلاقة التي يلخصها الباحث إدريس كثير في قوله: "الشعر والفلسفة أشبه بقمتين شامختين، يقولان نفس الشيء بهما حوار الجوار واختلاف المضمار، في هذا العمق من المدى هو الوجود، لكن بطرق مختلفة.(4)، إذ لا يتعارض كل ما يتعلق بقضايا الإنسان والحرية والكون مع خلجات الشاعر وعواطفه.

والإنسان هو راعي الوجود، ولا يستطيع أن يتعرف على مسكنه سوى بجوهر اللغة، باعتبارها جوهرا للشعر (5)، فكانت الأسئلة القلقة المتعلقة بالذات وتشظياتها بوابة عملاقة لفتح التحاور المستمر مع الإنسان وعلاقته بالقضايا الكونية الكبرى. إذ "لا وجود لفكر خال من الشعر، ولا لشعر خال من الفكر"(6) و"الكلمة هي مبدأ الخلق الثاني الذي تصنعه الروح بل يمكن أن نضيف إلى ذلك أن كل شيء، إنما صنعته الكلمة أي عرفته وعرَّفت به، وما كان بدونها لشيء وجود".(7)

فالكلمة الإلهية "كن" هي في آن قول ـ فعل، فليس الوجود إلا كلمات الله. هكذا تكون اللغة وجودا، ويكون الوجود في اللغة". (8)

عسيرةً

تخرجُ الكلمات

كأنَّ يداً تمتدُّ لتسحَبها. يقول عبد الرحيم الخصار

فإلى أين ستحملنا "عودة آدم"؟!

1- ماء التأمل

استخلف الله الإنسان في الأرض وكرمه بالعقل فـ "لم يشر لإيمانه، ولا لتقواه، ولا لعبادته، بل تباهى بعقله، القدرة التي تستوفي شرط الخلافة. فالإنسان نال شرفها بعقله أولا وقبل كل شيء. ويبقى العقل رهان نجاح الإنسان، حينما يرتكز له الإنسان ويتخلى عن الخرافة واللامعقول."(9)

يقول الشاعر:

أنا آدم

أول رجل على هذه الأرض

أومأ للشمس وناداها باسمها.

يقدم آدم بطاقة تعريف عنه، (أول رجل على هذه الأرض)، وإن كان يبدو الأمر غير مهم، فنحن نعرف من هو أبو البشرية، إلا أنه أبى إلا أن يستمر في تقديم نفسه، فهو الذي (أومأ للشمس وناداها باسمها).

لقد غدى استحضارُ الشمس النص الخصَّاري، بجرعة فلسفية تجلت في بِنْيَةِ البحث عن السمات الفكرية الأولى الخاصة بآدم، لأن المعارف الأولية، بحسب قول باروخ سبينوزا (1632-1677)، هي أصلاً مغروسة بالإنسان تلقائياً، لأن الله هو جوهر هذا الوجود، وباقي الجواهر متضمنة فيه ومنبعثة منه. (10)

وهيمنة ضمير المتكلم، يُسقطنا في دائرة التساؤل عن الذات الساردة، فهل اندماج الشاعر مع عملية الكتابة قد جعل من (آدم) نقطة انطلاق نحو الحياة ومساءلتها؟

يقول:

كانَ بمكْنَتي أنْ أبقى هناكَ
لكنّ يدي طالتْ شَرَكَ التّفّاح
متضمنة فيه ومنبعثة منه
ليستْ ريحًا تلكَ التي عَصَفَتْ
بالأشجارِ حينَ نزلْتُ
إنّها أنْفاسي
أنفاسُ رجُلٍ شَلَّ النّدمُ قدَمَيْه.

دفع سقوط (آدم) في الغواية وإعلان العصيان الشاعرَ إلى تناول الندم كحالة انفعالية مؤلمة، إنها حسرة الذات والأسف على ما ضاع.

مازالت رائحة التراب في أنفي
الحسرة أهرشها
ما بين الساعد والكتف
أما عيناي فيسيل منهما
حنيني إلى الملائكة.

لقد استثمر شاعرنا تقنية الفلاش باك ليعمق هذه الرؤية الشعرية التي احتفت بالنزول الجديد (لآدم) الذي اشتاق لموطنه الأول (الجنة).

فإذا كان الشعر يرتبط بتصورات الإنسان اتجاه الأشياء، فإن مخيلة الشاعر رسمت معادلة فنية بين الحقيقة المتجلية في خلق (آدم النبي) وبطل ديوانه من خلال استحضار عملية الخلق الأولى في تناص مع قوله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون).(11)

وكأنَّ (أنَا) الشاعر هنا؛ قد أُلْغيت كي تتَّحِدَ بزمكان مختلف، ليبقى الحنين لما كان فارضا وجوده على النص. وكما يقول محمود درويش" لا أحد يحن إلى وجع أو كابوس، بل يحن إلى ما قبله, إلى زمان لا ألم فيه سوى ألم الملذات الأولى التي تذوّب الوقت كقطعة سكر في فنجان شاي".(12)

2 ـ بكائية على حافة الكون

أ.دائرة الألم

يعيش العالم كل مظاهر العنف والظلم بسبب الصراعات على كل الأصعدة، ويرى الروائي الفرنسي ألبير كامو بأن العالم مكان غريب لا يهتم كثيرًا باحتياجاتنا ورغباتنا الإنسانية. (13) يقول:

الحرب التي ترج العالم الآن
دون طبول ورايات
بدأت بصخرة .
كان قابيل واحدا
ألقى الندم في بئر
ومضى

لكن الصخور ظلت تسقط تباعا

على جماجم العصور.

"يعتقد النقّاد أن قابيل أخذ في الشعر المعاصر دلالة قريبة من دلالته الدينية الموروثة، فقابيل رمز لكل سفّاح ولكل قاتل ولكل معتد"(14)، وقد ربط الشاعر في ذكاء بين الماضي السحيق وما يجري الآن، في إشارة قوية منه إلى أن (عودة آدم) استجابة لتأملاته في مصير الإنسان. و"الشعر الحق هو هذه المحاولة في تعرية الدخيلاء البشرية الغريبة، الكثيفة، الجامحة".(15)

هكذا يضع الشاعر في فلسفة خاصة بين أيدينا ملامح من هذا العالم المتوتر. لأن "النص الإبداعي ابن كاتبه وابن خصوصيات هذا الكاتب، وهو في الوقت نفسه ابن زمنه، وأسرار لغته وموروث ثقافته ورياح الثقافات التي هبت على تاريخه".(16)

فتلك الصخرة ظلت تتساقط على أشكال متعددة مع التطور الذي عرفته الأزمنة، والتي تحولت إلى طائرات وصواريخ وقنابل نووية وحرب بيولوجية.

يقول:

أسندتُ منكبي لجذعِ شجرة

وجلستُ أُصغي للريح

ماذا تقولُ هذه السيدةُ التي سبقتني إلى الأرض؟

في نحيبها سمعتُ نحيب الآخرين

وتعالت أصواتٌ كثيرةٌ بداخلي:

بكاء طفلٍ بلا بيتٍ بلا سرير

ندم كهلٍ تخلَّى عنه الحظّ

نواح نايٍ بين شفتينِ حائرتين

خرير الماءِ يمرّ في قلب رجلٍ مخذول

عويل نساءٍ وأنا لا أعرفُ السبب.

أغمضتُ عيني

فمرقت الريح بنحيبها

ومن غصن في الشجرة

سقطتْ دمعةٌ كبيرة على الأرض.

إن اشتغال الشاعر على الصورة الشعرية قد أغناها جماليا بمختلف العناصر البلاغية، حيث خلق علاقات جديدة بين أشياء لا توجد بينهم أية علاقة سابقا، ففي إطار حقل دلالي يستقي من الواقع مرارته، منح الحياةَ للريح والشجرة من خلال استعارة (الحزن والبكاء) كصفات إنسانية. والاستعارة عند أرسطو هي العبقرية، "لأنها حسبه أدلّ على عبقرية الإنسان الفذة في الاستبدال، والجمع، وعقد المشابهات، وهذا عائد إلى ما تتمتع به الاستعارة من قدرة بلاغية، وتأثيرية تكسب الكلام جمالا."(17) وما الماء سوى رمز للأفكار التي آمن بها لكن الحياة خذلته. كما أن "الريح رمز مشحون بدلالات العصف، والصعود والسرعة، والتقدم الأمامي، والانفلات من قوانين الحد والسيطرة"(18).

ب. هواجسٌ من الغربة والشجون

إن هذا النص العميق يحمل مكابدات تحفر في أعماق الشاعر، لتخلق علاقة تواشج بين العالم والأشياء. "إذ أسهمت الحركة الحديثة في تفجير الصراع بين ما هو روحي وما هو مادي داخل النفس"، وتبنت موقف الإنسان في الحضارة من شتى وجوهه، والتفتت كثيرا إلى ما هو إنساني شامل يمس مباشرة معدن الإنسان وقضاياه الملحة." (19).

فهل هذا ما دفعه إلى عناق (آدم)، فوق مسرح مليء بالدهشة والاستغراب كي يطرح أسئلته القلقة ؟

أي أرض

هذه التي زلت إليها قدماي؟ يقول.

إنه الحلم الذي تحول إلى وجع معربِدٍ تتدثر به الأرض ويشقى فيها الإنسان، "لأن الحلم هو الذي يكشف عن هذا العالم ويحرره" (20).

كنت أتعقب الأحلام في منامي

بينما تتعقبني الكوابيس. يقول

فهذه المعادلة الضدية : (الأحلام# الكوابيس)، تمثل العلاقة بين ما هو جزئي متعلق بذات الشاعر الحالمة و الواقع المرئي الذي ترفل فيه الآلام، في مفارقة تشعرنا باليأس والسعي وراء السراب.

هكذا يطل الشاعر على القارئ بشخصية (Personnage) آدم الدرامية، الذي حط قدميه على هذه الأرض ثانية، وبدأ يحكي عن زمن ولى مقارنا إياه بما نعيشه الآن، وهذه ملحمة إنسانية استطاع الشاعر من خلالها أن يتقن تحركاته فوق ركح الوجود، ليسأل العالم قائلا:

إلى أين تمضي أيها العالم
وأنا الأب الأول لكل هذا الأبد؟

إنها تأملات فلسفية وتذكير لما يعيشه إنسان القرن الحادي والعشرين من ضغوط، حملت العمق النفسي للشاعر وهو يحاول التغلب على ترنيمات القلق والتشاؤم.

قلت للطائر الذي حط على مقربة مني:
إن الشفاه التي تبتسم في النهار
تتحسر في الليل
إن اليد التي تغدو موجا حين تلامس اليد الأخرى
تتخشب حين تغيب
إن الدمعة التي أسالها الفرح
هي الدمعة التي سيسيلها الحداد.

فهذا الرمز الحي (الطائر) دليل على روحه التي تبحث عن الانعتاق من كل ما هو محسوس لتسليط الضوء أكثر على آلام الذات الغارقة في عالم اللامعنى.

فإذا كان الشاعر عبد الرحيم الخصار يكسر جمود زمنه بمحاورته لطائر حط على مقربة منه، فإن الشاعر العراقي جميل حسين الساعدي يخاطب الطائر للتحرر من أسره. يقول:

كنْ صاحبي يا طيرُ في سَفَري
بُحْ لي بما قدْ ضمّهُ الصْدرُ
فلعلنا نلقى الخلاصَ معاً
فأنا أسيرٌ طالَ بي الأسْرُ (21)

و"يرجع ارتباط الطيور بذهن الانسان الى أقدم العصور، حيث يعود الى حوالي (1500) سنة قبل الميلاد حيث كان إنسان الكهف يتفكر في أشكال الطيور، وهذا يؤكد أن حلم الإنسان ورغبته في التحليق، حالة ملازمة له باستمرار، والشاعر أكثر الناس حساسية للتحليق عاليا، ويعد الطائر أحد مفردات الطبيعة التي تؤثر في وجدان الناس فما بالك بالشاعر؟" (22)، و لأن عبد الرحيم الخصار كمعظم الشعراء الرومانسيين يبحث عن الانطلاق والتحرر من قيود شتى، فما استحضاره إذن؛ للطائر سوى بحث عن هدوء النفس، تاركا نصه مفتوحا على إشارات قوية شكلت العلاقات المتشابكة بين الشاعر ـ آدم- والوجود.

وهذه المناجاة أخذت منحى آخر:

قال الطائر :

هل تغني لي

أم تغني لوحدتك؟

فلمحة الاستغراب هذه التي طفت على سطح السرد الغني بالكثير من الإيحاءات والتي فجرها الشاعر، مؤشر قوي على حالة نفسية بعثرها الأنين، وتلميح لمعان خفية تحتفي بالوحدة في أقسى ملامحها. وكأن الشاعر يُغيب ذاته التي تعيش الغربة في هذه الحوارية التي تحلم بالتحرر من الوجع.

لقد وظف الشاعر لغة طيعة مكنته من رسم انفعالات ترجمت إحساسا عميقا لما يقاسيه الإنسان من شدائد ومعاناة، و"الشاعر في كل الأحوال لا ينقل إلينا حزنه فحسب، بل كل الأحزان الخارجية التي سُرِّبت إلى ذاته، أحزان الآخرين أيضا تصل إلى قلوب الشعراء، وبالتالي إلى أقلامهم."(23)

3 - آدم.. الذي قرع باب الحكاية

إن "رغبة الإنسان في الحكي رغبة إنسانية تكشف رؤيته للأشياء وتحدد علاقته بالعالم، إنها رغبة في التطهير والبوح، وإعادة صياغة العالم وهو في حالة تجل." (24) ويشكل ديوان "عودة آدم"، صراع الذات الساردة مع العالم لرصد الانكسارات الإنسانية عن طريق الحكي.

ويرى بيار جينيه بأن السرد يوجد " في كل الأزمنة وكل الأمكنة، وفي كل المجتمعات يبدأ السرد مع التاريخ أو حتى مع الإنسانية".(25)، هذا التاريخ الذي استحضره آدم من خلال الملحمة الخصارية حيث تواترت درامية النص من خلال رصد شخصيات متعددة، حيث احتفى بذكر الأنبياء والعظماء والفلاسفة. دون أن ينسى العديد من الرموز الإنسانية ودورهم في إنقاذ البشرية، أو إغراقها في آثامها (موسى، يعقوب، نوح، أديسون، جوبا، هتلر (...)

كما عانق الشاعر حقبا زمنية مختلفة، وبدأ رحلته من البيزنطيين، مرورا بالرومان والأمازيغ، والهنود، والصقالبة وآخرين، منتهيا إلى (الرجال الذين يتحسرون حول حائط المبكى.)

يقول:

أنظر إلى حيث لا يرى الآخرون شيئا
فيمر الأحفاد تباعا أمامي:
موسى وقد شق البحر بعصاه
ثم لم يتبعه أحد
يعقوب حين أعاد القميص
النور إلى عينيه

نوح وهو يضع العالم في سفينة
أديسون الذي أنار الكوكب ومضى
جوبا بعد أن سقطت نوميديا
من بين يديه.
أدولف هتلر بشاربه المقطوع
ربما كان يرغب
في أن يقود العالم إلى المقصلة.

لقد كانت أوجاع الأرض سببا في بعث (آدم) من بين أنفاسه، ليكون شاهدا على عالم مخيف تعيش فيه الإنسانية حالة من الضياع والتعب.

ستمر القرون تباعا
سيحرث أحفادي هذه الأرض
وسيجنون نهاية كل صيف
غلالا من التعب.

ويذهب الشاعر في نصه إلى أقاصي مختلفة لينذرنا من الموت الرمزي الذي يتربص بنا، ويرفع الستار عن الرعب الذي يحيط بنا.

يقول:

هذا العالم انهار مرارا
وكنت أغمض عيني في السماوات
كلما تناهى إلى مسمعي
صورة ارتطامه بنيزك
وأتمتمُ حين يسجو الليل
كي تعود الروح إلى طيوره الميتة.

هكذا؛ تفتح القصيدة كل الأبواب كي نلج أكثر إلى عوالم يرصد فيها الوحل المقيت، وهو يسافر بنا إلى القارة السمراء حيث الفقر يعزف ألحانه البئيسة. ليبقى "الشعر الذي يحملنا على أجنحته ويرفعنا إلى ما وراء المادة هو الشعر الخالد الصحيح الذي يتغنى دوما بقلب الإنسانية ".(26)

أبكاني الألم في الأراضي السمراء
حيث الدمعة تتبخر قبل أن تسيل
والأنفاس تتنفس قبل أن تفنى.
وأبكاني التراب على خد طفل
أخرجوه ليلا من تحت الحطام
أبكتني النيران
التي ترعب ليل العالم.

إن ما يعانيه العالم من بشاعة وآلام، قد ذكرنا بمقطع شعري لنازك الملائكة في قصيدتها الرائدة " "الكوليرا" تقول:

في كلِّ مكانٍ يبكي صوتْ
لا شيءَ سوى أحزانِ الموتْ .

هكذا خاض الشاعر عبد الرحيم الخصار من خلال هذا الديوان مغامرة شعرية بترسانة من الأسلحة الفنية، فكنا نجد آدم النبي، و(آدم) الجديد الذي خلقه من العبارات والانزياحات والاستعارات، خالقا خيط تواصل إبداعي متين بين هذا الثلاثي:

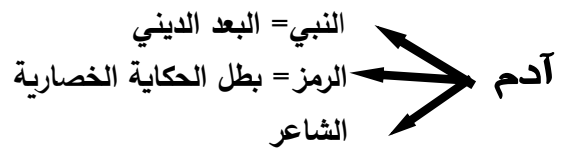

إذ تعمق في تحليل نفسية (آدم)، فلم يكتف بوصف أحاسيسه التي غمرها الذهول حين رأى معالم حضارية برهنت على التطور الذي عرفه هذا العصر، بل وضع بين يدي المتلقي فضاء مفتوحا على كل الأشياء الخافتة البريق.

أدهشتْني المصاعدُ في العمارات
والقطاراتُ التي تعدو
على قُضبانِ الحديد
(...) أدهشتني الواجهة الزجاجية
التي يلمع فيها الليل
(...) أدهَشَتني الطّائرةُ التي تُجاري الغيْمة
والهاتف الصغير
الذي يخبيء أسرار العالم
(...) أدهشني الضوء ومقاعد المدرجات.
فهل وصل بنا إلى نهاية الحكاية في قوله ؟:
سننتهي
كما أننا لم نكن
كما لو أن هذا الكوكب
ضربة فرشاة
سيمحوها المطر.
وكأنه يقول مع جبران خليل جبران (إنما الناس سطور كتبت لكن بماء).

4- لقطات من مونتاج شعري

عرف الشعر المعاصر تفاعلا مع فنون متعددة مثل القصة والرواية والمسرح، و"من الفنون التي استعارت القصيدة الحديثة بعض تكنيكاتها

ووسائلها في التعبير فن السينما، حيث استفادت ببعض تكنيكاته الأساسية كالمونتاج، والسيناريو، وسواهما من أساليب صناعة الفيلم السينمائي".(27) والمتعمق في ثقافة الشاعر عبد الرحيم الخصار يجد أنه نهل من ثقافات متعددة وألوان فنية مختلفة، ولكي "يتمكن من الاستجابة لشروط الإبداع والتحول والحداثة، قرأ وتأثر لكي يتطور".(28) وهذا ما جعله يبرع في توظيف الأسلوب السينمائي بشكل دقيق في هذا الديوان.

"فالتتابع الزمني والاستقصاء والبوح يشكل القصيدة، فتبدو مسرحا سرديا عليها يتحرك الراوي داخل نفسه وخارجها، عبر الزمن الماضي الذي يفتح الأفق السردي في القصيدة" (29)

وتستوقفنا رحلة (آدم) منذ سقوطه مثل نيزك من سماء الشعر. يقول:

كان الغبار كثيفًا
فلم أتبين موطئ أفكاري
رأسي يضجّ بالكلمات التي طفقت
حواسي تتلمَّسُ لها المعنى
وما من شيءٍ على الأرض
لأُشبِّهَ به هذا التَّيهَان
لم يكن لي صديقٌ أو نديم بعد
صادقتُ الترابَ والحجر
جربتُ أن أحلّق مثل طائرٍ أو أجدف مثل سمكة
فلم تسعفني ذراعاي.

من خلال هذه الصور الموحية، يصنع الشاعر من طين الكلمات حركات آدم وسكناته، والتي تُظهر بجلاء انشغاله بحالاته الوجودية.

و"تكون عظمة الشعر في العلاقات الجديدة التي يقيمها، وفي الآفاق التي يفتحها بلغة جديدة، لرؤية جديدة، وحساسية جديدة، وكتابة جديدة".(30)

كاميرا الشاعر

اللقطة الأولى	**الغبار الكثيف الذي يمنع الرؤية** **⬅ (فترة مخاض أفكار الشاعر)** **كان الغبار كثيفًا** **فلم أتبين موطئ أفكاري**
اللقطة الثانية	بداية وضوح الرؤية ..قرب ولادة آدم الجديد ⬅(الصرخة الأولى للمعنى) **رأسي يضجّ بالكلمات التي طفقت** **حواسي تتلمَّسُ لها المعنى**
اللقطة الثالثة	نزول آدم من سقف التخييل لعناق الواقع (تيه آدم في الأرض ومصادقة الطبيعة / تناص مع آدم النبي عليه السلام قبل خلق حواء) **وما من شيءٍ على الأرض** **لأُشبِّهَ به هذا التَّيَهَان** **لم يكن لي صديقٌ أو نديم بعد** **صادقتُ الترابَ والحجر**

اللقطة الرابعة	الحلم بالعودة إلى مكانه الأول (مع الملائكة)، ⬅ مرحلة اليأس والاصطدام بكل ما ترفل فيه البشرية من المآسي. **جربتُ أن أحلّق مثل طائرٍ** **أو أجدف مثل سمكة** **فلم تسعفني ذراعاي.**

ففي هذا المشهد التراجيدي يسمح عبد الرحيم الخصار للدفق السردي أن يرصد حركة الشخصية ومكان تواجدها، فهو يحمل كاميرا شعرية ينقل من خلالها للقارىء لقطات من مشاهد مدروسة بعناية قام بإخراجها بدقة.

إنها صدمة الشاعر المعاصر الذي لحقته الفجائع فنزفت أنفاسه قصائد يقاوم بها معول الطعنات التي تتلقاها روحه الهشة.

لم أضع يدا في كهف
ولا قدما في غدير
لم أراوح ظلَّ هذه الصخرة
رفعتُ عينيّ إلى كوكب بعيد
فعرفت أن تعاقب الليل والنهار
هو سرّ المحن.

لقد ابتعد الشاعر عن صراخه الذاتي ممسكا بخيط درامي حرك من خلاله الزمن المأساوي الذي طغى على كل المشاهد التي تترى في هذا التصوير الشعري البطيء، والذي يجعل القارىء متفرجا على لقطات مؤثرة سريعة خضعت ل"مونتاج" دقيق، متنقلا في حركة بانورامية نحو كل الزوايا كي يخبرنا عن البؤس الذي يسود المكان.

وما يستوقفنا حقا؛ هي تلك الخفة التي حرك بها كاميرا وجدانه كي يسلط الضوء على تنقلات هذا السائح (آدم) الذي طاف العالم الأعمى في مركبة الشعر الخصارية. إذ يستخدم الشاعر عبد الرحيم الخصار مثل إليوت "أسلوب السيناريو أو المونتاج السينمائي بحيث ينتقل بالقارىء فجأة من مشهد إلى مشهد تال بدون تمهيد".(31)

وللتأكيد على عملية الاسترجاع التي تبناها اعتمد على ذاكرة بصرية سينمائية وهو يحكي عن جسد آخر يشبهه (حواء الخفية) يقول:

ومشيت في الأدغال
حتى بدا لي جسد يشبه جسدي
ثم سقطت ثمار وتفجرت ينابيع
وخفقت طيور فوق رأسينا.
فأخفينا الخجل بالريش وأوراق الشجر.

فهل كان هذا حنينا موجعا لعالم لا تتحكم فيه ماديات العصر، حين كان (آدم) يمشي أنى شاء له ركب الحياة، بسيطا، عاريا من كل ما صنع منه اليوم، هذا الجبار الذي نسي إنسانيته فطغى منذ سيطر العلم وعالم التقنية عليه؟.

وهل حين تأبط الشاعر قصائده وأدخل القارئ إلى غرفة المشاهدة كان يتمنى أن تبقى راسخة في وجدانه ولا تُنسى؟

نعم؛ نظن ذلك.

5.أنفاس ت.س. إليوت
في شعر الخصار

لا شك أن قصيدة "الأرض الخراب" للشاعر الأميركي ث. س. إليوت، كانت نقطة تحول في الشعر العالمي. فكان شعره ثورة "قلبت المفاهيم الشعرية والنقدية رأسا على عقب، ونجحت في صنع حساسية جديدة كل الجدة، وامتد تأثيرها ليشمل عديدا من الشعراء في مختلف أنحاء العالم، "(32) "لما يشيع فيها من نقمة على وجه الحضارة الحديثة، وما أحدثته من تمزق للنفس الإنسانية وللعلاقات الإنسانية التي تربط بين الناس" (33).

وما الشاعر عبد الرحيم الخصار إلا واحدا من هؤلاء الشعراء الذين كثفوا رؤيتهم الشعرية من خلال عمالقة الشعر العالميين، الذين سكنتهم هذه الأرض، فافترشوا تراب معانيها، والتحفوا سماء اختلافها. ف "حضور القصيدة في قصيدة الحداثة العربية ظل محصوراً بمقولة اليباب ذاتها كفكرة جاهزة، وليس كرؤيا أو فلسفة متكاملة"(34).

ونحن نتعمق في ديوان "عودة آدم" وجدناه مرثية للعالم، فما هو سوى نص درامي صادم، حمل اعترافات الشاعر حول لعنة الشر التي أصابت الإنسان.

أي أرض

هذه التي زلت إليها قدماي؟ يقول الخصار..

فهل هي ضمنيا (الأرض الخراب) لإليوت؟

فإذا كان إليوت قد كتب بمداد الموتى عن ملحمة "تخزن أبعاد الخلق والتاريخ والوجود الإنساني في حضارة معينة، من خلال رؤيا تستحيل إلى

واقع معيش"(35) فإن عبد الرحيم الخصار بديوان "عودة آدم" قد عانق بداية الخلق وحاول رصد العديد من الإشارات التي تتكىء على الصراخ والعويل، كإنذار لما آلت إليه الحضارة الإنسانية المعاصرة.

إنها رحلة بين ثنايا الضياع، وكأن الشاعر يلتقط أنفاسه على رصيف المآسي التي تتربص به، فانطلق لاهثا وراء حدسه، خائفا مما ستؤول إليه التساؤلات الضمنية التي خلقها "آدم" كرمز يشهد على انهيار القيم الأخلاقية. "فنحن حين ندرس واقع العصر الحديث نجد أن التكنولوجيا خلقت ظروف الحياة للفرد ولكن خلقت إلى جانبها شروط الموت أيضا، وهذا يظهر في التطور الفائق في وسائل التدمير عددا وعتادا ونوعية، رغم خطر الفناء الذي هدد الإنسانية جمعاء خلال الحربين العالميتين الماضيتين." (36) يقول:

هذه الأرض
ربما كانت عِقابا
ربما كانت غنيمةَ حربٍ لم أخُضها
هذه الأرض ستشيخ
وستغادر مكانها يوما ما
سيمرّ الزمن مثلما تمرّ
الأشياءُ الصغيرة مع الريح
وسنلمح النهايةَ برهةً قبل السقوط.

ولا سبيل للخروج من الأزمات والإحباطات التي تحاصر الإنسان قبل السقوط النهائي، غير المعرفة البناءة لا المدمرة.

يقول إليوت:

أي جذور تتشبث، أية أغصان تنمو

في هذا الخراب الصخري يا ابن الإنسان؟

لا تستطيع أن تجيب أو تخمن

فأنت لا تعرف سوى

كومةٍ من الصور المحطمة.

سأريك الخوف في حفنة من تراب.. (37)

فبين كومة من الصور المحطمة (إليوت) وركام من الشظايا (الخصار)، يتم تصوير حقارة الإنسان وضآلته. يقول:

كأنّ يدا امتدت إلى قلبي

وأضافتْ إلى ناره نيرانا أخرى

كأن ضوءاً مرق من أمامي

وخلّف ركاما من الشظايا.

لقد جعلنا الشاعر عبد الرحيم الخصار نشاهد هذه الدراما الشعرية الثرية ونصطدم بما حل بالأرض من المآسي، مستعيرا رموزه الخاصة لتعزيز رؤيته الفلسفية اتجاه العالم.

ويبقى شاعرنا صوتا متفردا له خصوصيته الشعرية وأسلوبه الجمالي الذي يتميز به.

يردد مع شارل بودلير:

ما أسعد من يستطيع بجناحي جبار
أن ينطلق إلى الحقول المضيئة الصافية

تاركا وراءه السأم والأحزان الكبيرة

التي تهيمن بثقلها على هذا الوجود الغامض. (38)

انحناءة أخيـرة

خلق الشاعر الكبير عبد الرحيم الخصار عناصر جاذبة داخل هذا الديوان، ومدَّ جسرا بين خبرته الذاتية والوجود، فـ "الشاعر رجل يسهر ليعذب الكلمات وتعذبه."(39) يقول.

فهذا النص الطويل المتوهج بالعمق الفلسفي والإنساني، سيرة شعرية عميقة الدلالات، والإبداع الأدبي من هذه الزاوية "لا يعكس صورة الواقع وإنما يعكس الجوهري في (حركة) هذا الواقع". (40)

هكذا؛ غاص شاعرنا في مسامِّ العالم، مستحضرا آدم من خلال المعنى، ويرى د.أحمد بلحاج آية وارهام أن " الشعر يخلق الفلسفة.. لكن الفلسفة لا تخلق الشعر كما هو شأن الناقد أرشيبالد ماكليش الذي يقول: (ليس على القصيدة أن تعني، وإنما عليها أن تكون)."(41)

كما استقى شاعرنا من القلق الذاتي الأغلال التي قيدت آدم رغم تحركه بحرية فوق مسرح الخطاب الشعري. لأن الشعر هو "الأقدر دائماً على التعبير عن هذه الأهوال والتغيرات بأقل كلمات ممكنة.(42)

وما أجمل لقاءه بمولانا جلال الدين الرومي حين قال:

"دخلت قلبي لأرى كيف هو

شيء ما هناك جعلني أسمع كل العالم يبكي ." (43)

الهوامش

* كل القصائد التي اعتمدنا عليها من الديوان المنشور على الموقع: (عودة آدم) عبد الرحيم الخصار.

https://archive.org/details/adama5555577ssar_Docx

1. أنطولوجيا اللغة عند مارتن هيدجر، إبراهيم أحمد، مطابع الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت ، ط 1 ، ص:71/ 2008.
2. كرستيان دوميه. جنوح الفلاسفة الشعري، المنظمة العربية للترجمة، ترجمة ريتا خاطر، مراجعة جوزيف شريم. الطبعة الأولى بيروت ماي 2013، ص:5.
3. عمر شبانة. لا يقوم شعر بلا بعد فلسفي ولو في تجلياته الحياتية ثقافة/لا-يقوم-شعر- بلا-بعد-فلسفي-ولو-في-تجلياته-الحياتية.

https://www.independentarabia.com/node/339266/

4. https://www.annahar.com/arabic/culture/04032021084310304
جريدة النهار2021-03-04 القصيدة والفلسفة: "حوارية الجوار واستشراف اللانهائيّ ".
5. https://www.alquds.co.uk/الإنسان-غريب-في-هذه-الأرض
عزيز الحدادي، غربة الفلاسفة والشعراء - 10 فبراير – 2021.
6. إسماعيل مهنانة : الوجود و الحداثة، هيدغر في مناظرة العقل الحديث، الدار العربية للعلوم /بيروت، دار الأمان /الرباط، منشورات الاختلاف/الجزائر، ط1، 2012، ص 131.
7. لطفي عبد البديع. التركيب اللغوي للأدب- بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا، ط1، مكتبة النهضة، مصر، 1970م:ص 26.
8. أدونيس، النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى 1993، ص:31.

9. د. ماجد الغرباوي https://www.almothaqaf.com/c/c1d-2/943256
10.عماد الدين الجبوري آراء/رحلة-مع-الفلاسفة-في-نظرية-المعرفة-/4 https://www.independentarabia.com/node/182661
11.سورة آل عمران الآية (59).
12.محمود درويش. في حضرة الغياب، رياض الريس للكتب والنشر ص:124.
13. https://www.aljazeera.net › cultureandart › 2019/10/12 هؤلاء الفلاسفة سيساعدونك على فهم الفوضى السياسية في العالم ...
14.د. سيد رضا ميرأحمدي. أشكال الحنين إلى الماضي في شعر بدر شاكر السياب. مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، فصلية محكّمة، العدد الحادي عشر، خريف ١٣٩١هـ.ش/٢٠١٢م. ص:171 .
https://lasem.semnan.ac.ir/article_1348.html
15.أدونيس. سياسة الشعر، دراسات في الشعرية العربية المعاصرة، الطبعة الأولى 1985. دار الآداب بيروت.111.
16.خالدة سعيد، فيض المعنى، دار الساقي، الطبعة الأولى 2014، ص:14.
17.الاستعارة التصورية في قصيدة الثور والحظيرة لأحمد مطرASJP. حوليات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية الكاتب : كرميش حنان.
18.أسيمة درويش، تحرير المعنى، دار الآداب، الطبعة الأولى 1997، ص 63.
19.د.ديزيره سقال. الأرض الخراب والشعر العربي (دراسة تأثير قصيدة ت.س. إليوت في الشعر العربي الحديث)، منشورات ميريم. الطبعة الأولى 1992، ص: 19.
20.علي سعيد أدونيس، الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب، صدمة الحداثة، ص:200.
21. http://www.alnoor.se/article.asp?id=58164 كريم شلال الخفاجي. الطيور ودلالتها الرمزية في الشعر.
22. http://www.alnoor.se/article.asp?id=58164
23.من حوار للشاعر مع الجريدة الكويتية الطليعة 27 نوفمبر2013.(أجرته معه الشاعرة هدى أشكناني).

24.أ. د. عبد الناصر هلال: تداخل الأنواع الأدبية وشعرية النوع الهجين (جدل الشعري والسردي)، منشورات النادي الأدبي الثقافي بجدة، ع 164، المملكة السعودية، ط1، 2012، ص 54.
25.رولان بارت. النقد البنيوي للحكاية، ترجمة انطون أبو زيد، عويدات باريس، ط1، 1988، ص:89.
26.يحيى عمارة، أثر-شعراء-الغرب- في-الشعر- العربي- المعاصر24 يناير، 2017 http://www.yahyaamara.com/2017/01/24/.
27.علي عشري زايد، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ابن سينا للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط4، 2002الصفحة: 215.
28.يحيى عمارة، أثر-شعراء-الغرب-في-الشعر-العربي-المع2017/01/24/ http://www.yahyaamara.com
29.د. عبد الناصر هلال، آليات السرد في الشعر العربي المعاصر، منشورات مركز الحضارة العربية، ص:58 الطبعة 2006.
30.أدونيس. سياسة الشعر، دراسات في الشعرية العربية المعاصرة، الطبعة الأولى 1985. دار الآداب بيروت.165
31.د.نبيل راغب. ترجمة ودراسة أرض الضياعررائعة ت.س. إليوت .الهيئة العامة المصرية للكتاب. 2011 .ص:109/108 إليوت.
32.ت.س. إليوت دراسة وترجمة سامي يوسف. دار منارات للنشر، ط1 1986 ص: 48.
33. د. عز الدين إسماعيل. الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة، ص:326.
34.عابد إسماعيل- ت. س. إليوت وأثره العربي.. تلك "الأرض الخراب" التي غيرت مفهوم الشعر https://alantologia.com/blogs/22390/.
35.د.ديزيره سقال. الأرض الخراب والشعر العربي الحديث ص:36. ط:1992.

36.محند أولحاج أزمة الإنسان المعاصر عند هربرت ماركيوز، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، 2021 المجلد13. العدد01 ص، ص: القسم (ج) الآداب والفلسفة. جامعة أكلي، بالبويرة– الجزائر. ص:255.
37.ت.س إليوت. دفن الموتى الجزء الأول ترجمة عبد الهادي السايح https://diwanalarab.com دفن–الموتى/.
38.شارل بودلير. أزهار الشر، ترجمة حنا الطيار، جورجيت الطيار. ص:17
39.مشاركة الشاعر في مجلة الجديد ضمن ملف عن جدوى الشعر. الخميس 01/04/2021.
40.عبد المنعم تليمه. مقدمة في نظرية الأدب، دار العودة، بيروت (دون تاريخ) ص 165.
41.https://www.facebook.com/ahmed.ouarham
الصفحة الرسمية فيسبوك.
42.www.hekams.com/?id=30455
43.من حوار للشاعر بجريدة الشرق الأوسط– 04 نوفمبر2018م رقم العدد [14586] .

الشاعر حالم بالضرورة، حالم أثناء الكتابة وقبلها وبعدها. وحين يتوقف عن الحلم سيتوقف عن كونه شاعرا. هكذا أنظر إلى الكتابة. لكنّ الحلم هنا ليس معناه الانفصال عن الواقع، بل هي تلك الرغبة الدائمة في تجسير المسافة بينهما، شعراء جنوا أو انتحروا أو انعزلوا عن العالم، لأن المسافة بين حلمهم وواقعهم كانت شاعسة جدا، وقد عجزوا عن تقريب هذين العنصرين المتنافرين إلى بعضهما.

***جريدة العرب، الثلاثاء 13/08/2019 السنة 42 العدد 11435 (حاورته ذ.خلود فلح).**

الطريدة الثانية

نيران فوق مسرح المجاز

1 - قبس من نار البدايات

يرجع القدماء أصل الوجود إلى النار، "وهو ما حمل الفكر الفلسفي القديم على اعتبار العالم كله ناشئا عن كتلة النار، ومن ثمة لم يأل الإنسان جهدا منذ القديم في الصراع من أجل الاقتراب من ملكوته، والاتحاد بمداه أو الوقوف على خصائصه وسماته، وشكل هذا الهاجس أرضية ثابتة لملاحقة ومواجهة ظواهره، إما عن طريق التقديس، حيث لجأ الإنسان قديما إلى عبادة النار أو النور لأنها تجسد في منظوره جوهر الوجود."(1)

ويرى غاستون بشلار بأن النار كانت "ابنا لقطعتين من الخشب"(2)، لأن الإنسان البدائي ولَّدَ النار عبر الاحتكاك بين حجرين، وكان هذا نقطة انطلاقه لبناء حضارته.

وتعتبر نار (بروميثيوس) من أشهر الأساطير الإغريقية، حيث سرق شعلة المعرفة المقدسة من زيوس كبير الآلهة ليعطيها للبشر(3). إذ يرتبط معنى العبارة "نار بروميثيان" ارتباطًا وثيقًا بالمعرفة الفكرية والإبداع، فـ "نيران" promethean هي الرغبة في تحقيق أهداف نبيلة عالية، من خلال التضحية بالنفس. بناءً على حقيقة أن Prometheus ساعدت الناس على تطوير العلوم والفن."(4)

ولأن الشاعر مرآة للواقع الذي يحيا فيه، فقد تفاعل مع كل عناصر الطبيعة من خلال القصيدة بوجدانه وخياله، فكانت النار من المفردات التي ألهبت قريحته، فجاءت في قصائده حاملة دلالات مختلفة،"إذ تعتبر رمزا متعدد الأبعاد، استمدّه الشاعر من الوعي الجمعي، ومن ذاته، ومن رؤاه

الإبداعية، فحمَّله بدلالات مختلفة مرتبطة بالواقع الاجتماعي والسياسي، وبما يختلج في نفسه من صراع يشبه الاحتراق؛ ويتضح ذلك جليًّا في تجارب الشعراء المعاصرين، من خلال توظيف رموز تنتمي إلى "المعجم الناري" للتعبير عن عواطفهم ومواقفهم وآرائهم بأسلوب إيحائي متميز.(5)

وقد تدرج استعمال النار كرمز لافت في الشعر العربي على مدى العصور، لتكون لها أبعاد دلالية متعددة.

2 ـ الكتابة بحبر الشمس

إذا كان للاحتراق وجود مادي (خارجي) فإن الاحتراق عند الشعراء مجازي "فالنار هي الحي الأعلى Vivant- Ultra وهي داخلية وخارجية". (6)

يقول الشاعر هشام الجخ في رائعته "ايوة بَغِير"

غيرة الراجل نار في مَرَاجِل

نار بتنوّر مابتحرقش.(7)

فالغيرة (نار) استعملها الشاعر كرمز للتعبير عن عواطفه المتقدة، لأن نار الداخل تتمثل في مزيج من الأحاسيس الفياضة التي تتصاعد من كل المشاعر أو الانفعالات المتوترة التي تعكس أبعاد القلق الوجودي.(8)

ويأتي الشاعر عبد الرحيم الخصار ليرمينا بين لهب مشاعره التي تحمل روح الخسارة لحبيبته، لأن" الحب هو الفرضية العلمية الأولى للإنتاج الموضوعي للنار".(9)

يقول:

النيران تلتهب في داخلي

بينما الصقيع القاسي فحسب هو ما يحيط بي

إنني قلق و مرتاب

و بسيط كورقة فارغة.

لقد بُنِيَت دلالة (النيران) على أساس تخييلي لإعادة إنتاج الصورة الذهنية المتعارف عليها وهي (الاحتراق)، وكأنها تنحو منحى سرياليا لإخبار المتلقي عن العلاقة التقليدية التي تربط النار بالإنسان. وكأنه يقول: "أنا نار داخلي، وهي حياتي" (10). فالصورة الشعرية المرئية عمقت حركة التفاعل بين هذا التناقض الطبيعي (النيران # الصقيع القاسي)، لنقلِ حالة التوتر النفسي والصراع الذي حاول الشاعر أن يضعنا أمام مرآته كي نرى بعمق معاناته الوجدانية، لتحملنا هذه الدلالة الضدية نحو التأزم والألم. فالشاعر منفي داخل ذاته، لا يسمع غير موسيقى أنينه. وقد أورد (النار) بصيغة المبالغة كي يلتحم حزنه العميق مع المفردات المتناولة.

لكن؛ ما سر هذا الإيقاع الذي سيطر على القصيدة الخصارية حيث تتحول المرأة إلى نغم خالد؟، هل لأن "أهم وأبرز الكائنات النارية على

الإطلاق هي المرأة، تلك التي أشعلت الشعراء، وأشعلت الثقافة بكل ما من شأنه يجعل المذكر ينجذب إلى ضياء الأنثى، وتمتد علاقته بها عبر درجات تصل عند بعضهم إلى حد الاحتراق عشقا"؟ . (11)

يبدو هذا واضحا في حطب العشق الذي أوقدت نيرانه القصائد الخصارية، والذي اتخذ أشكالا مختلفة نحصر بعض أنواعها في ما يلي مع ذكر المقطع الشعري الذي وردت فيه:

نار الفراق:

- غيرت المقاهي و الحدائق التي كنا نرتادها

أشعلت النار في سبع و ثمانين رسالة

نار الحرب:

- فلماذا حملوا النار في أيديهم بدل الزهور؟!(...)

- ربما يشعلون النار في الأكواخ و البيادر و البساتين و في أحلامنا.

نار الأسطـورة:

- التنين الذي يرهبنا ستلتهمه النار التي تخرج من فمه

النار الطبيعية:

- كعادتي لملمت الحطب البارد من غابة الأرز و بالكاد أشعلت النار في المدفأة..

- مع طواحين الماء و النار و الهواء

سأجلس و حيدا

مثل قائد روماني غرير.

3 - ظلال من النيران الخصارية:

أ.نارالرحيل

لقد غذت النار كرمز موحي خيال الشاعر لتصبح نبعا جماليا، فهندسة قصيدة عبد الرحيم الخصار الحداثية، تترجم تداعيات ماض طوع من خلاله لغة تماهت مع جراحات الذات الشاعرة. فـ" ما الحب إلا نار منقولة، وما النار إلا حب مباغت" (12)، وكأنه يقول مع الشاعر نزار قباني في رائعته (المستبدة): إني أعاني إني أموت إني حطام.

يقول:

يمرق طيفك فجأة

فترتبك خطاي

و أرتجف من فرط البرد و الخذلان.

أينما تكونين يصلني صوتك

مثل أنين محارب خانه الدرع.

حرك الشاعر هذا المشهد العاطفي، وجعلنا نلتقط الصورة السردية المزروعة في حقل الذات (ارتباك، أنين)، وحقل الواقع الذي يجسد الفراق من خلال (طيف) الحبيبة، واستحضار الطيف ظاهرة بارزة في شعر الشعراء، و"يلجأ الشاعر لهذا الأسلوب حين يشتد تأزمه النفسي، وتضيق الحياة به، لتعذر سبل اللقاء، فيطرق عالم الأحلام والخيال بحثا عن متنفس قد يريح نفسه المغتربة الهائمة، حين تجد بعض ما يؤنسها ويسليها في الطيف، ليشم فيه رائحة الحبيب".(13)

وهنا يلتقي عبد الرحيم الخصار مع الراعي النميري أحد أبرز شعراء العصر الأموي الذي يقول:

عجباً لطيفك أنه ... يشفي الجَوى وهو الجَوَى" (14)

إن حاسة العين (يمرق طيفك فجأة) تتواشج مع أجزاء النص، لتخلق من البياض حبلا سريا بين استحضار الغائب الذي تمثله الحبيبة الراحلة، والحاضر المتدفق بالاستمرارية من خلال معجم يستمد صفاءه من حنين عاشق لا يَنْسَى، فأن تكون "محبوبا معناه أن تفنى في اللهب، وأن تحب معناه أن تومض من نور لا نفاد له".(15)

هكذا اشتغل شاعرنا في مختبره الفني على لوحات نفسية، إذ استمد طاقته الإيحائية من تجربته الإنسانية. والأشعار حسب ما كتبه الشاعر الألماني ريلكه في روايته "دفاتر مالته لوريدس بريغه": ليست، كما يحسب البعض، مشاعر. بل هي تجارب". فـ "الذكريات يجب أن تُنسى وأن تُسال في الدم لكي ينبثق القول الشعري'".(16)

يقول:

رغم الضباب الكثيف بيننا
أمد يدي إلى يدك رغم الجدار
وأقبلك حتى من دون أن أراك
عيناك هما عيناك
وليس بمقدوري أن أصفهما
ربما لم تتغيري كثيرا
لكن شعرك صار طويلا مثل قصائدي.

لقد استثمر ما هو ملموس لاستدعاء معاني الصورة من الوجدان إلى المشاهدة، فـ (الضباب الكثيف) يندرج ضمن حقل دلالي تمثله قوة زمنية ضاغطة على ضلوع الديوان، حيث كان ألم الفراق تيمته الأساسية. أما (الجدار) في دلالته المادية، ما هو إلا عائق معنوي يرمز إلى فاصل بين شيئين.

فهناك تقابل بين الضباب الكثيف كلفظ متحول والجدار كلفظ ثابت، ويبرز الشاعر من خلال كلا الدلالتين كل المعاني التي تُوصلنا إلى عمق الصورة الحسية التي "تقوم على تفكيك الواقع، وتشكيله في المخيلة الثانية تشكيلا لحمتــه الحواس الخمس..." (17). فالشيء الوحيد الذي تغير حسب ظنه هو شعرها الذي أصبح طويلا مثل قصائده العاشقة.

ب. السقوط في دائرة الوجع

عرف مشهد الوداع في الشعر العربي محطات كثيرة تناقلتها أقلام النقاد منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا الحالي، واختلفت صوره النفسية والحسية من شاعر إلى آخر حسب ما تقتضيه تلك اللحظة الإنسانية المؤثرة، وقد وضع عبد الرحيم الخصار بين يدينا هذه التجربة من خلال لغة منسابة تتغلغل داخل وجدان القارىء، فكان كباقي الشعراء الذين سكنتهم لحظة الفراق فكتبوها بحبر آلامهم. يقـول:

كانت ليلة لم تنته
حين جلسنا على عتبة البيت
نتجاذب أطراف الأيام التي مرت
ونتوادع بألم
كنت أربت على شعرك الأشقر
أجفف دموعك التي أغرقتني في حسرة لا طائل منها
وأحيط جيدك بذراعي تحت أنظار العائلة
ناسيا تماما أنك لم تعودي لي.

يا لهذه الزفرات التي جعلت شاعرنا يتنقل داخل دائرة غنائية بحس جمالي عال!، وكأنه يستحضر بدر شاكر السياب في قصيدته (اللقاء الأخير) إذ يقول:

هذا هو اليوم الأخير فليته دون انتهاء
ليت الكواكب لا تسير
والساعة العجلى تنام على الزمان فلا تفيق!
خلفتني وحدي أسير إلى السراب بلا رفيق. (18)

فكم تمنى شاعرنا أن تكون حبيبته شهرزاد أحلامه، يقول:

كنت أريد أن أحيا معك ليلتين فوق الألف

وأرى معك ما رآه أسلافنا في عصور الذهب

كنت أريد أن أسحبك معي

إلى غيطان و حدائق لم يصلها من قبلنا أحد.

فشخصية شهريار الخفية من ظاهر النص، تُبْرِز التلاحم النفسي بين التراث والأبعاد الروحية لشعر الشاعر. فهو يحلم ببقاء شهرزاده ليالي بعد الألف قربه، مشتاقا إلى الحكايا الفاتنة التي استمتع بها الأجداد. لكن للأسف؛ لم يَلُحْ فجرُ الصباح كي تبقى معه، إذ رحلت بسرعة تاركة نعلَ لياليها مثل الوشم في روحه.

يقول:

أفتح الباب و أتألم:

هجرتِ البيت

بينما لا يزال ظلك على الكنبة

بصماتك على الكأس

آثار أقدامك على البلاط

و الريشة الوحيدة في المزهرية

لازالت تحركها أنفاسك.

هذا الظل الذي لازم أيضا الشاعر الفلسطيني نمر سعدي، يقول:

لكنني لا أرى في المرايا

سوى ظلَّها فوقَ وردِ السريرِ. (19)

ج. ارتجاف الذات بين حرائق الوطن

يرى الشاعر اللبناني بول شاوول بأن" الشعر هو فوضى الذات، وهو «فوضى العالم".(20) هذا العالم الذي يحاول الشاعر عبد الرحيم الخصار أن يطفئ نيرانه بقصائد مائية تحتَجُّ على كل شيء.

يقول:

كل شيء من حولنا صار يشبه غابة تحترق
والأفكار التي آمنا بها
صارت ماء قديما في إناء".
خبريني إذن لماذا تفحمت أحلامنا؟
لماذا صارت الابتسامة على شفاهنا ثقيلة و غير مستساغة؟
كأن عاصفة مرت من هذا المكان
كأن أحدا ما نصب الفخاخ لأقدامنا الرطبة
تؤلمني الفخاخ مثلما يؤلمني غيابك.

لقد استدعى الشاعر رموز الطبيعة (الماء والعاصفة) لتوضيح رؤيته الشعرية، فإذا كان الماء هو شريان الوجود فإن الشعر هو نبضه المعافى، وقد عمق الشاعر باستخدام هذه الصورة الاستعارية (غابة تحترق، ماء قديم) اضطرابا ممتدا في نفسيته. فإذا كانت الغابة ترتبط غالبا بكل ما هو مخيف، فإنها أيضا فضاء لراحة النفس، وحسرة الشاعر على احتراقها ذات دلالة

على فقدان كل ما هو جميل حوله(غياب الحبيبة)، وكأن الأرض تغوص في المآسي التي لا ينتهي أوارها.

يقول:

ربما لا ترين الأغلال في قدمي
لكن شفتيّ تتمتمان بلعنة لا نهاية لها
تعالي معي إذن لنجوس التل
و نلعن كل الذين أوقعونا في هذا الشراك.
ألا ترين أن هؤلاء البشر لم يعودوا بشرا كما كانوا
صاروا مستنقعات كبيرة من الدماء.

إنه انهزام داخلي جعل شعره ينتفض ثورة على كل شيء وكأنه يبحث عن ولادة جديدة تستوعب وهج وعيه لتغيير هذا العالم الأعمى الذي يغوص في الدماء، وبناء الإنسان المعاصر من خلال التطور الفكري الذي يتوق إليه كي نتجاوز النكسات الإنسانية. إذ استند شاعرنا المتميز على معان داخلية خلقت لوحة تشكيلية نقرأ من خلالها بلاغة الخطاب البصري. فـ "الشاعر يجدد اللغة، ويعطي للكلمات معنى أنقى لكي تكون أكثر قدرة على التعبير عن عالم يتجدد. (21)

يقول:

فالحمام الذي يطير من أيدينا
تصيبه دائما نيران صديقة .

لقد عرف رمز (الحمام) تحولات في الشعر العربي، فنوحه يذكي مشاعر الأسى والشجون، كما في قصيدة أبي فراس الحمداني الشهيرة:

أَقُولُ وَقَدْ نَاحَتْ بِقُرْبِي حمامَـةٌ :	أيا جارتا هل تشعرين بحالي؟
لقد كنتُ أولى منكِ بالدمع مقلـةً؛	وَلَكِنّ دَمْعي في الحَوَادِثِ غَالِ

لكنه أصبح عند شعراء آخرين رمزا للحرية والسلام، كما عند الشاعر محمود درويش الذي تحـــول "على يديه إلى رمز له أبعاده الثقافيـة والعالمية والجمالية." (22)

فهل اختزل الشاعر المتميز عبد الرحيم الخصار هنا؛ صوت الإنسان الباحث عن الطمأنينة والحرية، وكأن الأحلام المغتالة هي التي تطير من بين أيدينا؟، لأن "الشعر ينطلق من تمازج الواقع بالخيال والحلم والماضي والحاضر والمستقبل غير المرئي. وبالتالي، فالشعر مرتبط بالحرية."(23)

وهل كان هذا الجدار الكوني الذي بناه انطلاقا من فواجعه كافيا لحمايته من حروب صغيرة خاضها بسلاح اللغة؟، يقول:

هل قدر لهذا العالم
أن يكون على هذه الشاكلة؟.

فـ "الشاعر منفي في جسده، وفي صوته، وفي روحه، وفي وطنه، وفي عشقه".(24)

هي شكوى إذن؛ تعكس انكسار ذاته التي تطارد أحلامها المسلوبة.

يقول:

أنا أضعف منك يا وطني
فلا تتكئ علي طويلا
كما لو أني عكازتك الوحيدة
لم ترأف بي حين قست الأيام
فكيف أجلس قرب سريرك الرث

متوهما أنني أخفف عنك الحمى؟
و أنا أعزل
لا سيف في يدي و لا رصاص
أملك فقط ترسانة أحاسيس
و حصنا عاليا من الكلمات.

هكذا؛ يتناول الشاعر العلاقة العميقة التي تربطه بوطن مريض، فذاته مزدحمة بمشاعر جياشة بالحزن والأسى، وهو شاعر أعزل لا يملك غير الكتابة ليقاوم خساراته.. إذ" لطالما كان الشُّعراء صوت الحرية".(25)

فالمضي نحو المجهول هو صدى لهذا الألم الذي سيطر على وجدانه الذي يستمر في الإبحار في السديم، متسائلا بحس فلسفي عميق عن مصيره. يقول:

إلى أين أمضي؟
الشمس التي كانت تشرق في سمائي سقطت
عما قريب
سيغدو العالم غرفة مظلمة
و أنا لا أزال واقفا هنا
أتحسس ما سيأتي
و أحضن الظلام بعطف العميان
و في يدي حزمة أوراق
أهرش رأسي قليلا
و أفكر في تغيير العالم

تماما مثل المجانين الكبار.

إلى أين أمضي؟

الظلام يرقص في حفلة بلا قناع

و الخوف يتسلق أعضائي

كما لو أني جالس

في حديقة تبتلع مقاعدها

شعري غابة أفكار

عيناي ثلاثون عاما من القلق.(...)

لمسنا من تكرار لازمة (إلى أين أمضي؟) إحساس الشاعر بالغربة في المكان الذي يتواجد فيه، وكأنه يدور في متاهة سوداء لا نهاية لها.

ولكن؛ هل كان التكرار المتناول في هذا النص، مجرد أداة جمالية تعزز مشهده الشعري، أم ترجمة موسيقية لذات أراد من خلالها أن يعلن الحداد على العالم الذي يُشعره بالخوف؟

إنه هذا وذاك، فتوظيف هذا الأسلوب يعمق التفاعل الدلالي الذي يعكس الانكسار النفسي المشبع بالألم الذي يعيشه الشاعر، فـ "عندما تتكرر كلمة، أو جملة، أو عبارة، أو مقطع، نشعر بوجود نغم أساسي يتبدى من خلال لزوم التكرار، وفي الوقت نفسه يسهم التكرار في بناء النص الشعري" (26)، كما يدل على سلطة جمالية كثفت المعنى، لخلق عنصر تجاذب داخل القصيدة.

يقول:

لماذا نحس بشيء لا رغبة لنا فيه ؟

لماذا نجد أنفسنا في ساحة لم نسر إليها يوما ما ؟

لماذا ننام في غرفتنا ونستيقظ في غرف أخرى ؟

يكشف الشاعر من خلال ذاته (المتفخمة) علاقته بذوات أخرى، طارحا أسئلة مفتوحة على الآتي.

تُرى؛ ما الذي يحاول أن يغرسه في نفسية المتلقي من خلال هذا الامتداد الزمني الغني بالتساؤلات؟، هل هي محاولة منه لجذب انتباه القارىء فقط، أم تأكيد على أسئلة قلقة اجتاحته تترجم يأسا قاتلا؟، فهذا الحوار الداخلي يحركنا ذهنيا ونفسيا لنلمس رغبات ممزقة ترسم اغتصاب مشاعر الإنسان، ودفعه نحو مسار يرفضه. إنها تلك القوة القاهرة التي تسيطر على خطواته رغم مقاومته، لكن؛ هل كان الشاعر يبحث حقا عن أجوبة لأسئلته؟، أم أنه كما قال الشاعر د. ريكان إبراهيم في "قصيدة السؤال":

في أنْ تكونَ سائلاً
ليس هناك ما يشُير أن تكونَ
جاهلاً
(أنْ تجهلَ الجوابَ) ليس دائماً ما يبعثُ
السؤالْ
فقد تكونُ دارياً وناكراً
أو عارفاً وماكراً
وقد تكونُ باحثاً عن المسؤولِ لا
السؤالْ
ما كلُّ ما نسألُهُ يحتاجُ منّا دائماً

علامةَ استفهامْ. (27)

د. معزوفة التيه :

بين الهذيان والوعي اليقظ، ينقل إلينا الشاعر ما يعترم الذات من حسرات دفينة، إذ تعتبر" القصيدةُ مستودع أسرارٍ وحواس". (28)

يقول:

إنني أهذي
لكن وعيي حاد مثل معول
و إذا ما بدوت لك أدنو من الجنون
فلأن يدا سوداء تدفعني من الخلف.

فاستعارة اليد السوداء دليل على الانكسارات التي تتوالى على قلب الشاعر، والتي لم يستطع تجاوزها لأنها أصبحت لصيقة بوجوده.

وما هذيانه سوى كتاباته المنفتحة على كل ما يضج بتمزق النفس الإنسانية. يقول:

دعيني أعود إلى غرفتي
فهي أرحب من عالم لا لذة لي فيه
أرتاح فقط على هذا المقعد
قبالة مكتب رحيم
و صورة لشاعر ميت

أضع على الأوراق أحلامي
و كوابيسي أيضا.

للغرفة معان متعددة، قد تكون تلك التي يحتمي فيها الشاعر من قسوة الحياة، وقد لا تكون بالضرورة جدرانا وسقفا، ويمكن إجمال بعض دلالاتها كما يلي:

الغرفة / المنزل (البحث عن السلام الداخلي بعيدا عن ضجيج العالم ← الوحدة = غربة الذات ← الحرية = القصيدة بكل تجلياتها).

فهل (صورة الشاعر الميت) كانت ترجمــة لتعلقه بإرث الذيـن رحلوا، أم كانت رثاء رمزيا للشاعر الذي يسكن أعماقه؟

أحيانا تتسع غرفتي
حتى أن طريقا تتفتح فيها
و عربة تصل إليها بأحصنة بيضاء

إنه اغتراب يدفعه إلى الاختباء من العالم لحماية نفسه الهشة، وكأنه يعيش رواية تراجيدية تنقل القارىء من خلال السرد المشحون بالكثير من العواطف الجياشة نحو آفاق مغايرة للمألوف.

فرفض العالم والتقوقع داخل الذات باستعمال سلاح الكتابة لمحاربة بشاعته، شجاعةٌ من الشاعر ونقل دقيق للتوتر الذي يجتاح بنية النص، فكانت إحدى نيرانه الصديقة التي اشتعلت في فضائه الشعري نابعة من هذا الصراع، وكأن الشعراء كتب عليهم أن يكرعوا المعاناة.

وما أعمق شاعر الثورة والحب أبو القاسم الشابي حين قال:

والشقيُّ الشقيُّ من كان مثلي، في حَسَاسِيَّتي، ورقَّةِ نفسي(29)

ولا نظن الشاعر عبد الرحيم الخصار سوى وريقات حب تطير في كل الاتجاهات، فتجرحها رياح البؤس الذي يحيط بالعالم.

4 ـ عباءة الذات المطرزة بأنين الوجود

يمتطي الشاعر صهوة اللغة ليرينا وجها معتما، إذ حول المرارة التي تسكن أعماقه، إلى قوة إيحائية تعيد صياغة وعيه بالأشياء.

يقول :

فوق هذه الأرض

أنا فقط لاعب أدوار:

مهرج صغير في حجرة ضيقة

عازف كمان مصاب بالرعاش

مجرد كومبارس في فرقة لا يعرفها أحد

مؤذن في صومعة مهجورة

راو ينسى الحكايات

حارس غابة يهزمه النوم

مروض للثعابين الميتة

دليل أعمى لقافلة تجوب الصحراء

زارع النرجس في الرمال

بائع للكلمات بأثمنة متهاودة

مربي أطفال ودعوا الشمس باكرا

و أيقنوا أنها لن تعود في الغد

أنا فقط مقامر خاسر

و رهاناتي دائما غامضة.

إن تداعيات هذا النص زاخرة بالانتكاسات، لكن؛ لماذا جسد الشاعر ظلال شخصيات بئيسة يلعب دورها فوق مسرح الوجود؟، هل ضاقت به كل العوالم حتى أضحت مراياه تعكس الأوجاع بكل أشكالها؟، ولم لَمْ ينظر للحياة كما فعل الشاعر محمود درويش حين قال: (على هذه الأرض ما يستحق الحياة) ؟

فهذا العالم المقنع بالخسارات جعلت جسده الشعري يتشظى، وكأن الكلمات قبس من نار تأكل عشب الحياة.

أريد أن أصرخ عاليا مثل السوبرانو

العالم تافه و حقير

العالم نذل و جبان

هذا الصراخ الذي يعلو في ترنيمة السرير "lullaby للشاعرة الإنجليزية" إيديث سيتويل "Edith Sitwell

تقول:

رغم أن العالم انزلق وغاب

ترن صرختي العالية النشاز، مثل أغنية طيور الفولاذ في الأعالي:

مازال شيء واحد باقيا ـ العظم ـ (30)

فمن بين ثنايا هذا الصراخ المفخخ بالتمرد ينقل إلينا رؤيته الشعرية السوداء اتجاه العالم:

سنرفض هذا العالم
لأنه يرفضنا
وسنبقى غرباء إلى أن نموت
ليس لنا من خيار آخر.

إن "العربي في وقتنا هذا - ونتيجة لظروف اجتماعية، وسياسية، وثقافية، واقتصادية، يعيش حالات من التوتر والإحباط في ظل واقع "العولمة" الذي يتسم بالكثير من التناقضات، وسيادة منطق الغاب... وعليه، فمن الطبيعي أن نلفي في أشعار العرب - قديمها وحديثها- مصطلحات محورية متكررة؛ من مثل الاغتراب، الغربة، الغريب".(31)، والغربة أنواع متعددة منها:"الغربة الزمانية، والغربة الميتافيزيقية، والغربة الروحية، والغربة النفسية (32) وهذه الأخيرة هي التي يعيشها الشاعر، لكن بصيصا من الضوء يطل من شعره رغم الحلكة التي تحيط بالأشياء، فيعود مثل جندي لا يملك غير الأمل في غد أفضل.

سيتغير العالم يوما ما
أعرف ذلك مثلما أعرفك. يقول

خاتمـــة

تنفتح نيران هذا الديوان على تيمات حُبلى بالنزيف، حيث يلهث المعنى خلف الشوق والغياب، ليؤسس عالما خاصا يغوص في أرقِ الشاعر الذي سجن حبيبته داخل ذكرياته، وهو يردد مع بودلير:

إني أكره الوجد ويوجعني الفكر.(33)

هذا الوجع الذي تحول إلى سفر إبداعي يعزف على أوتار الحياة ألوانا مختلفة من التمزق النفسي.

فالشاعر عبد الرحيم الخصار نحات يسبر أغوار الشعر من خلال وعي نقدي للذات التي تتحدى نفسها في حروب غير معلنة بواسطة الكتابة.

حيث استثمر تجربته الخاصة وما يجري في العالم من توترات، كي يوصل للقارىء في إطار درامي انفعالاته التي سكنت نفسيته الهشة بلغة مكثفة .

فقد كان أعزل؛ تندفع مشاعره في دروب يحاول أن يجد فيها شمسا تشرق وسط العتمة، من خلال شحذ أسلحته الفنية واستدعاء مجموعة من الأدوات البلاغية لتنضيد مساره الحكائي.

وكأنه يقول مع الشاعر المكسيكي أوكتافيو باث:

بين ما أراه... وما أقوله

بين ما أقوله... وما أصمت عنه

بين ما أصمت عنه... وما أحلم به

بين ما أحلم به... وما أنساه

هناك يكون الشعر.(34)

كانت هذه إذن؛ بعض النيران التي أشعلت حزنا إنسانيا انساب نهرا، فكان العاشق الحزين الذي لا يؤنسه غير الحنين، وهو يهرول في دروب الشعر ليرينا العالمَ بكل تناقضاته.

و"الإنسان تجاذب دائم، أي تناقض دائم، بين الفرح والألم، اللعب والرصانة، الطفولة والحكمة. فالإنسان الذي لا تناقض فيه، الإنسان المكتمل، المصنوع، مدعاة سخرية، لأنه لا يعود إنسانا بل دمية." (35)

ولنختم بقوله:

" تبا لأربعين قصيدة كتبت من أجل امرأة واحدة. تبا لامرأة تطرق بابك.. تداهمك بالعطر، تملأ الغرفة بالويستريا و الياسمين، ثم تمضي بلا وداع، تتركك وحيدا و تعلق عنوانها في الريح".

الهـوامش

* صدر ديوان "نيران صديقة"، عن دار النهضة اللبنانية 2009، ويقع الكتاب في 72 صفحة وكل القصائد التي استشهدنا بها من الديوان المنشور في موقع جهة الشعر http://www.jehat.com/ar/KetabAljeha/books/Pages/29-4-10.html

1. https://www.startimes.com/?t=31635600 سعيدي المولودي: ثنائية النور والنار في شعر سعدي يوسف
2. غاستون بشلار، النار في التحليل النفسي، ترجمة نهاد خياطة، دار الأندلس، بيروت ط 1، 1984، ص:27.
3. أساطير إغريقية عبد المعطي الشعراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982 ص:88.
4. معنى المصطلح "نار بروميثيوس": من أين جاء وماذا يعني

https://ar.public-welfare.com/4311982-the-meaning-of-the-idiom-quotprometheus-firequot-where-it-came-from-and-what-it-means

5. د. أحمد سعود. مدارات رمز النار في الشعر الجزائري المعاصر، جسور المعرفة، المجلد 6، العدد 3.

http://193.194.91.150/en/downArticle/136/6/3/127020

6. كاستون بشلار. النار في التحليل النفسي، ترجمة نهاد خياطة. دار الأندلس للنشر والتوزيع بيروت- لبنان.الطبعة الأولى 1984 م.ص: 76.
7. كلمات- قصيدة- ايوة- بغير- هشام- الجخ https://m5br.com.
8. https://www.minculture.gov.ma/?p=3555#.YWbSbdbjIl0. سعيدي المولودي: ثنائية النور والنار في شعر سعدي يوسف.
9. غاستون باشلار. النار في التحليل النفسي مرجع سابق ص: 27.

10. غاستون باشلار. النار في التحليل النفسي مرجع سابق ص: 71.
11. د. جريدي المنصوري. النار في الشعر وطقوس الثقافة، ط (1) المركز الثقافي العربي بيروت لبنان، الدار البيضاء/ المغرب. ط2002. ص:37.
12. غاستون باشلار. النار في التحليل النفسي مرجع سابق ص:28.
13. أحمد علي الفلاحي. الاغتراب في الشعر العربي، عمان، دار غيداء للنشر والتوزيع، 2013. ص:106 (13).
14. http://islamport.com/w/adb/Web/590/115.htm.
15. غاستون باشلار: النار في التحليل النفسي مرجع سابق ص:97.
16. الأعمال الشعرية الكاملة لراينر ماريا ريلكه بالعربية |الجمل https://www.aljaml.com.
17. الصورة الشعرية في القصيدة الحرة الجزائرية أشكالها ووظائفها د. صبيرة قاسي جامعة البويرة. مجلة الخطاب العدد 24. ص:198.
18. اللقاء الأخير- بدر شاكر السياب القصيدة. كوم https://www.alqasidah.com
19. قصائد من فلسطين للشاعر الفلسطيني نمر سعدي– مجلة رسائل الشعر، العدد الرابع عشر، نيسان 2020.
20. بول شاوول الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد. بول-شاوول:-شعراء-اليوم-بلا-آباء- https://www.alittihad.ae/article/88003/2015/.
21. أدونيس. سياسة الشعر، دراسات في الشعرية العربية المعاصرة، الطبعة الأولى 1985. دار الآداب بيروت.178.
22. http://montada.aklaam.net/showthread.php?t=33144
د.عبد الرحيم الهبيل "رمزية الحمام في شعر محمود درويش".
23. عز الدين المناصرة. (الشاعر المستقل)... خائفاً ومخيفاً: www.ssrcaw.org/ar/show.art.asp?aid=586944&coid=...
24. ملاحق الخليج, ملحق الخليج الثقافي 18 مارس https://www.alkhaleej.ae/node/pdf/90272/pdf2012.
25. نوري الجراح. الشعراء سارقو النار: الشاعر والشعر والناس https://thaqafat.com/2015/10/28650.

26. عصام شرتح . التكرار عند شعراء الحداثة المعاصرين عصام شرتح . فنية التكرار عند شعراء الحداثة المعاصرين | عصام شرتح | مجلة...
27. https://www.almothaqaf.com/index.php?option=com_cont .ent&view=article&id=955950&catid=324&Itemid=1235
28. نوري الجراح. الشعراء سارقو النار: الشاعر والشعر والناس https://thaqafat.com/2015/10/28650.
29. https://www.aldiwan.net/poem38934.html.
30. د. ديزيره سقال. الأرض الخراب والشعر العربي الحديث". منشورات ميريم، الطبعة الأولى 1996. ص:60
31. فريد أمغتيطشو. الاغتراب في الشعر الإسلامي المعاصر، الطبعة الأولى 2015 . ص:9 الألوكة www.alukah.net .
32. فريد أمغتيطشو . مرجع سابق ص:7.
33. شارل بودلير. أزهار الشر، ترجمة حنا الطيار وجورجيت الطيار. ص:60
34. عز الدين المناصرة. (الشاعر المستقل)... خائفاً ومخيفاً: https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=586944
35. علي سعيد أدونيس. الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب، الجزء الأول صدمة الحداثة، دار الساقي، الطبعة السابعة 1994. ص:153/152.

أنا كمعظم الشعراء العرب مريض بالحنين، ليس الحنين للماضي وللحظاته التي تبقى مشرقة مهما تغير الزمن، فحسب.
أنا مصاب بالنوستالجيا لماض آخر متخيل.

***الشرق الأوسط الأحد - 25 صفر 1440هـ - 04 نوفمبر 2018م**
رقم العدد [14586] عبد الكبير الميناوي

الطريدة الثالثة

عطر الحنين

شيء من فاتحة الاستهلال

يعتبر الحنين فنا لم تخل منه قصائد الشعر العربي في كل عصوره، وتعتبر "تقنية الحنين إلى الماضي إحدى التقنيات المهمة التي ظهرت كمصطلح نقدي في الأعوام الأخيرة عند نقّاد الأدب." (1)

ولعل الوقوف على الأطلال وتفنن الشعراء في وصف غيم ابتساماتهم وهم يستذكرون أمام البيوت الخالية ذروة انكسارهم في حضن السراب، كان وقودا لإعطائنا المقدمات الطللية التي نقتفي من خلالها هسيس العشاق.

وأبرزها للملك الضليل الذي يقول:

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ ** بِسِقطِ اللِوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَلِ

لكن "لم تعد النوستالجيا مرتبطة بمكان قديم أو نقطة زمنية في حياتنا كأفراد، بل أصبحت تعبّر عن مشاعر الوحشة والفقد والغربة تجاه العالم، وفي بعض الأحيان تكون مجرد شعور رومانسي تجاه تصور خيالي عن الماضي، أو حنين إلى المطلق الذي لا يملك روابط حقيقية بالماضي. تقول سفيتلانا: «بدأ القرن العشرين بيوتوبيا مستقبلية، وانتهى بنوستالجيا نحو الماضي في وقت ما من الستينيات".(2)

وقد يتجاوز الحنين هذا الأمر، ليبقى حنينا داخليا للطفولة والعائلة والصداقات التي تمثل فردوس حلم في أعماقنا، وكأننا نستعرض الأيام الجميلة التي كانت، والتي لا نتوفر عليها في الحاضر المعاش. "فالحنين إلى الماضي عند الأدباء، وخاصة الشّعراء منهم، له أسباب مختلفة، وهو

منبعث من دواعٍ وعوامل كثيرة، كالعوامل الشخصية، والسّياسية، والاجتماعية، والعاطفية، وغيرها. والشاعر الذي ينـزع نحو هـذا الفنّ تؤذيه الغربـــة والاغتـراب عـادة ويتضجّر من ظروفه الراهنة." (3)

والشاعر عبد الرحيم الخصار يكتفي بالنظر من نافذة الشوق على ماض تسرب من بين أنامله كما الماء..

1 - عطش لا يرويه الحنين

إن المتعمق في قصائد الشاعر يرى إلى أي حد يأسره الحنين للماضي، فهو بكل بساطة يكتب ذاته بصدق فوق الورق، وكأنه يحدثنا عن يومياته التي تعانق التغيرات التي طرأت على حياته، إذ يحكي بسلاسة عما كان، وما يترقبه من الآتي. يقول: "الكلمة، كما أنطقها في المقهى أدلقها على الورق." (4)

مختلفا عن كافكا (Kafka) الذي يقول: "إني لأكتب بخلاف ما أتحدث، وأتحدث بخلاف ما أفكر، وأفكر بخلاف ما كان ينبغي لي أن أفكر، وهكذا إلى أعماق أعماق الظلام". (5)

هكذا ينساب نهر الحب من كلمات الشاعر، فنراه عاشقا يقص علينا بعضا من فوضاه الداخلية، حيث تزمجر الذكريات شتاء في قلبه.

يقول:

فيما مضى

كنت صيادا عنيدا

خدعت النهر بقصبة قصيرة

و الآن فقدت القصبة و الصنارة و الشباك.

هي اعترافات عن علاقة الشاعر بالأشياء التي تحيط به، وسعي حثيث منه لتسجيل مراحل نضجه الشعري من خلال أحداث مر بها جعلته ينظر إليها بشكل مختلف. فهل هذا رثاء للذات التي كانت تتمتع بميزات في الماضي افتقدها في حاضره؟، أم هو استسلام للظروف التي جعلته يكتفي بالتأمل؟

يقول:

أزهرت وردة البلاستيك في الكأس
أزهرت الأوراق التي نسيتها على الطاولة
أزهرت الورود المرسومة على الستائر
و الدفاتر و الوسائد و السجاد
و لم تزهر الوردة التي تحيا ذابلة بداخلي.

إذا كانت الوردة رمزا لمجموعة من التجليات منها المحبة والجمال واللين، فإن الإيقاع الداخلي الذي أحدثه تكرار فعل "أزهرت" قد فتح دلالاته على هذا الصراع الداخلي الذي يعيشه الشاعر، إنه قلق يعانق عجزه من خلال هذا الامتداد الصوتي المشبع باليأس.

فحتى المستحيل تحول من خلال التخييل إلى حقيقة، فكيف يعقل أن تزهر ورود البلاستيك والستائر والدفاتر والوسائد والسجاد وهي جامدة لا حياة فيها، أو ليست هذه مبالغة لرصد الشرخ العميق الذي يعيشه الشاعر وهو يلامس عبثية الوجود؟، فعلاقة العناصر ببعضها تعتمد على التأثير

على المتلقي وتسليط الضوء على أعماق الشاعر لاصطياد الدلالات المتخفية. فكل الأزهار ميتة، لكنها أحيت كلها إلا زهرة قلبه. يقول:

تلبك كل شيء في غرفتي

كل كتاب جريرة

كل نافذة هي فوهة خراب

كل ملاءة هي راية استسلام

و ها أنا أنشج مثل الأرامل في الليل

أضع يدا على الخد

و في النهار أجلس مثل شحاذ على قارعة الطريق

أتعقب أسراب الطيور المهاجرة

وأمني النفسي بأشياء لن تأتي

تنقل إلينا تجربة الشاعر عبد الرحيم الخصار صوته الخافت المتفجر بالانفعال والقلق (أنشج، أضع يدا على الخد...)، إذ يطارده إيقاعه النفسي المفعم بالإحساس بالعجز في حقول القصيدة المشبعة بالتوتر.

يقول:

أمشي غامضا في طريق غامضة

و بالرغم من الكثبان

بالرغم من خطواتي الثقيلة

أحس أني أفقد أثري.

والمتأمل في شعره، سيجد أنه شاهد على عصر بأكمله، فأغلب الشعراء المعاصرين جعلوا من شعرهم دواة لرثاء حالهم، ووصف معاناتهم، وما قصائدهم سوى انفجار وتمرد على واقع سلبهم أبسط ما يتمونه. فـ "لغة الشّعر ليست لغة تعبير بقدر ما هي لغة خلق، وليس الشّاعر الشّخص الّذي لديه شيء يعبر عنه وحسب، بل هو الشّخص الّذي يخلق أشياء بطريقة جديدة".(6)

وعبد الرحيم الخصار ورقة بيضاء رسم فوقها شعرُه خارطة لزمن بئيس لم يستطع بواسطة كلماته المشرقة حزنا وألما أن يغير من واقعه شيئا، فاكتفى بخلق عالم حالم ينظر إليه من نافذة قلبه ، ويحكي لنا عن أحاسيسه التي بعثرها الزمن مثل وريقات الخريف. "ولا يمكن لصلة الشاعر بعالمه أن تكون على هذا المستوى إلا إذا كان مسكونا برؤيا حقة، تتيح له تمثل العالم، والانغمار فيه والتفاعل معه تفاعلا وهاجا".(7)

يقول:

هذا الوعي الحاد بالأشياء
هو الذي سيميتني
و هاته الكلمات المتراصة على الأوراق
أخاف يوما ما أن تدفعني إلى الهاوية.
لماذا تغيرت الألوان في عيني ؟
لماذا صرت أنظر إلى الحياة
كأني أسير حرب ؟

إن الهزيمة أمام الأشياء التي يعيشها الشاعر قد غيرت اتجاهاته حتى بدا أمامها أسيرا يعيش عبودية من نوع آخر. هذا الوعي الحاد كما سماه؛ جعل نفسيته الهشة تصطدم بكل هذه الصور البشعة التي تحيط به، فعصرت شعره حزنا، فهل شعر عبد الرحيم الخصار إعلان للحرب على الواقع المتردي الذي يحيا فيه، أم مرثية كلما دخلنا مغانيها لم نجد غير ناي حزين يُسمعنا أوجاعه؟

2 ـ نواح على صدر العشق

يعتبر الحب إكسير الحياة بالنسبة للشاعر، فكلما اختلى بذاته نراه يقف على باب الحبيبة المفتوح على وجدانه كي ينتصر على هزائمه. لكن كيف يكون حاله وحبل الفراق يشنقه؟

فعبد الرحيم الخصار يستقبل هزيمة أخرى جعلته شريدا أمام حانة الوجد، هكذا هوى بين تداعيات اللقاء الذي جمعه بالحبيبة ذات صيف، لتنشطر روحه على ضفاف الليالي التي علمته معنى الاحتراق بنار العشق. يقول:

أتذكرين الصيف القديم؟
أتذكرين الحياة التي كانت؟
كم ناديتك بالأسماء التي أحب
كم ناديتني باسمي
واتكأت على جدار في السطح
تراقبين سقوط النجوم من السماء

و تغنين لي أغنية نجاة الصغيرة:

"تعود شعري الطويل عليك".

هو الألم الصامت ينساب من قلب عاشق كلما تعب من الركض جلس يستحضر ذكرياتها، ويغفو بين أشيائها التي سكنته، فاستطاع أن يحول هذا السرد إلى همس نسمع صدى نواحه. فهل كما يقول الشاعر الإنجليزي شيلي إن "أكثر أغانينا جمالا هي أكثرها حديثا عن الألم؟".(8)

يقول:

دموعك تسقط من كتاب الذكريات في الغرفة

كنت ميتا في قريتي مؤمنا بموتي

دموعك هي التي جعلتني أورق في تلك المدينة.

فكيف يكون ميتا ثم يبعث بين أنفاس دموع حبيبته؟، فهل هو حي فقط تحت ظلال ذكرياتها التي لا تنسى؟. يقول:

أحببت ظلك و العطر الذي يسبقه

أحببت نظرتك الواثقة و نظرتك المرتابة أيضا

لقد حفرت في جدار الغرفة و دفنت كل شيء هناك

نسيت كل شيء

لكن ذاكرتي العنيدة لازالت كدرج يحفظ كل الصور.

إن مشاعر الوجع والمعاناة تستقر في ذاكرة الشاعر ولا تفارقه، فهو يجسد في هذا المشهد عدم القدرة على التوقف عن التفكير في حبيبة

رحلت (ظلها..عطرها..نظرتها..)، وهذا أقسى ما يتحمله عاشق ينسحق قلبه بين أنفاس الغياب. يقول:

ارحمني أيها الماضي

لملم أثوابك و غادر

فلم يعد بوسعنا أن نحيا معا في هذه الحجرة

أنت زاخر بالحب

و أنا زاخر بقلقي.

إنها نوستالجيا تغترف من اللغة إيقاعاتها، و"الدلالة الغربية لمصطلح النوستالجيا ...تدلّ على حالة التحسر التي هي مرحلة من مراحل المأساة في بعديها المكاني والزماني". (9)

فهل اختار الشاعر أن يكون عاشقا لا يجد كينونته سوى في ماض أفقده طعم الإحساس بالحاضر؟

يقول:

أمازالت يداك تعرقان من الخجل؟

أمازال المذياع قريبا من السرير كالعادة؟

و المشط الأزرق و المزهرية الزرقاء؟

كما لو أن أيام الحب الطويلة

كانت مجرد أحلام.

فبين الصراع القائم بين طاقته المتناقضة، مطاردة الحبيبة بين الأطلال، التوسل لماض أن يرحل، كل هذا يشكل جوهر النص الخصاري، وكأن الشوق والحنين سيلازمانه مدى الحياة.

يقول:

بكاء الناي يبلل شالات الساهرين
من القيثارة و العيدان و الكمانات
تتطاير الألحان في الصالة كفراشات أبريل
و بأغنية حب قديمة
تهز نجاة الصغيرة الحواس و الكراسي و الجدران
فيما أنا أقطّع قمصاني
و أصرخ بأعلى صوتي : أحبك.

تصرخ الذات الشاعرة باستخدام قاموس خاص تتشظى فيه دلالات الآلات الموسيقية المتعددة (الناي، القيثارة، العود، الكمان) كنسق رمزي يفتح النص على زمن نفسي مثقل بالشجن والألم، والذي تبدو معالمه على هذا الشكل:

شالات مبللة ← دموع (الناي والكمان)
تطاير الألحان ← (أغنية حب= نجاة الصغيرة)
حنين قـــاتـــــل ← (العود و القيثارة)
قميص يُمَـزق ← لحظة الصراخ (أحبك)

لقد بدأ الشاعر بالناي، فهل يلتقي مع جلال الدين الرومي في قصيدته (الناي)؟ :

منذ أن قطعت من أجمتي
أصدرت هذا الصوت النائح
وكل من فصل عن حبيب
يفهم ما أقول.
وكل من اقتلع من أصله
يتوق إلى العودة إليه. (10)

فحنين الإنسان إلى بداياته يشبه شوق الشاعر لحبيبته، هكذا يستوقفنا في هذا المقطع تفجر مشاعر الحزن والحنين، فهذا الناي الحامل للصوت النائح يغوص في الذات التي تترجم إيقاعا داخليا متوترا. فتارة يخاطب الشاعر الحبيبة، و تارة أخرى يشد أوتار قلبه مثل زرياب كي يغني على قيثارة أحزانه لعينيها.

يقول:
عيناك رواية من عشرة فصول.
فإذا كانت عيون الحبيبة عنده رواية، فالشاعر محمود درويش ينشد:
عيناك نافذتان على حلم لا يجيء
و في كل حلم أرمّم حلما و أحلم
لكن أحلام الشاعر عبد الرحيم الخصار اختفت بمجرد غيابها.

3 ـ قهوةٌ مُرَّةٌ من فنجان الرحيل

يكثف الشاعر طاقته التعبيرية ليعبر في شكل هندسي عن انتحار بسمته بعد أن غزاه الفراق. يقول:

ربما حبك كان له مذاق الفاكهة
لكن غيابك فجأة و الهول الذي يليه
كان مؤلما مثل غروب في قرية
مثل قرية بلا أشجار
مثل شجرة خارج الغابة
مثل غابة هجرها العاشقان
مثل عاشقين خذلهما الوقت
مثل وقت معطل في جدار
مثل جدار كان في قصر
ثم صار متكأ في الخراب لامرأة عجوز
مثل امرأة عجوز تحلم بالجار العازب
مثل عازب في الخمسين يقتله الندم
مثل الندم
مثل الندم.

هكذا تتصاعد موجة الانفعال في مشهد زاخر بالضيق والاختناق، إذ خلق الشاعر سلسلة من العلائق بين الأشياء التي ربط بينها خيط الخذلان من خلال التشبيه، "ومما لا شك فيه أن الصورة البيانية هي إحدى ركائز لغة الشعر لما تتمتع به من جماليات وظهور لمعانٍ مختلفة ومتعددة".(11)

هكذا؛ تناغمت الصور المليئة بالحركة في هذا النص، فهناك تدفق سريع للتأثيث السردي المتناول، إذ يشير الشاعر إلى ارتباك يجتاح فضاء هذه الكتابة، فـ (ربما) التي بدأ بها الخطاب تحيلنا نحو الحيرة والشك حين تطرَّق للحب الذي كان؛ (ربما حبك كان له مذاق الفاكهة). والذي جعل الشاعر يعود من أوهامه بحقيبة الندم.

يقول:

في الصيف أختبئ بين الكتب و الأوراق
حتى لا تطاردني جثة الحب
و في الشتاء
حين أضع رأسي على الوسادة
تخرج صورتك من الألبوم وتقف أمامي
أخرج من غرفتي
و أسير تحت المطر بلا مظلة
هذا ما يصنعه الماضي برجل لا حاضر له.

تفتح الصور الشعرية نوافذها في دائرة المعاناة، فبين الصيف المفعم بالحياة، نجد الشتاء رغم مشاعر الوحشة والبؤس دافئا بذكرياتها، إنها صرخة قلب يتنفس زمنا ضائعا.

فهل هذه الذكريات كانت جامعا بين الشاعر وت.س.إليوت في قوله :

أحاطنا الشتاء بمعطف الدفء
وافترش الأرض بجليد النسيان. (12)

فنرى الشاعر عبد الرحيم الخصار يمعن في استحضار رغبات الذات المندغمة في مدارات التذكار الماضوي الحامل لرماد الشوق، والذي ينبعث مثل الفينيق بين باحات القصيدة ليضيء بفرادته ذلك الصراع المتنامي بين الحاضر والماضي. فكيف يا ترى تكون حالة شاعر يسيل حاضره كالنزيف وكأنه يفتح للقارىء مدن الوهم؟

يقول:

(تعالي نتشمس في حدائق الماضي، فمن يدري ما الذي سيحل بنا غدا، ربما يصل التتار بخوذاتهم إلى ضيعاتنا، ربما يجرفون التلال والأشجار و ينهبون ذخيرتنا من الذرة، ربما يشعلون النار في الأكواخ والبيادر والبساتين وفي أحلامنا.. من يدري؟)

فتضافر النداء مع القلق النفسي قد جعل شعره مليئا بصور الأحداث المرتقبة، من خلال توظيف رمز دموي هو (التتار) المدمر لكل ما كان جميلا في الحضارة الإسلامية.

فهل في كل عصر (تتار) جديد لذا شعر الشاعر بالخوف منه، فأراد الاحتماء في ماضيه الجميل حتى لا تدوس أقدامه السميكة هامة أحلامه؟، أم أن الفراق هو ذلك الشبح المخيف الذي أقض مضجع قصائده وجعل الكرى يهرب من أهدابه؟.

4 ـ شِبَاكٌ تشرق فيها أزهار المعنى

1. شظايا تخترق السرائر

تنزف قصائد شاعرنا وهو يحاول الدفاع عن كينونته...

يقول:

هل هذه هي الحياة التي انتظرناها طويلا يا صديقي؟

هل هذه هي الأفكار التي رتبناها في دفاتر الطفولة؟

كم حلمنا بأن يصل أجسادنا النحيفة والباردة

شعاع من الشمس التي تختفي وراء الجبل

سرنا على الأرض حتى تشققت جوارحنا

سرنا أيضا في الماء بلا معجزة

وفي عز أحلامنا خذلتنا الطريق.

لقد ألح تكرار فعل(سِرنا) على ذهن الشاعر ليؤكد للمتلقي على سيطرة معاني الخذلان على نفسيته المتأزمة، والشاعر الحداثي المميز هو الذي يجعل من هذه الظاهرة - أي التكرار- قيمة جمالية تزيد النص حسناً، والدلالة رسوخاً وثباتاً، والقصيدة أكثر ترابطا ووحدة وتماسكا".(13)

فبين ما رسمه في دفاتر الطفولة، والعمر الذي سال توهجه في نهر شبابه، داسته أقدام رغبات لم يحققها.

وكأنه يقول مع فاروق جودة:

و مضيت وحدي.. في الطريق

شاب تعانق راحتاه يد القدر

يمضي كحد السيف منطلق الأمل

و تعثر المسكين في وسط الطريق

هزمته أحقاد البشر

فقد ضاق بالأحزان من طول السفر

أين البريق و أين أحلام العمر؟ !

ضاعت على الطرقات في هذا الوطن. (14)

هذه التجربة الإنسانية التي حفرت في سراديب الذات، عانقنا من خلالها أحلام الشاعر وخيباته. يقول:

في زحمة الفصول

لم أنتبه إلى خطاي

فوضعت قدمي باكرا في الخريف.

إذا كان الخريف رمزا للكآبة ولرحيل العمر، فإن قيمته الدلالية هنا تكشف بجلاء رحلة الشاعر النفسية، حيث صب أحاسيسه من خلال مفردة مشبعة بالإيحاء، ليرسم لوحة سوداوية بأنغام عذبة.

فهل هو تواطؤ مقصود من الشاعر كي يخبرنا بعُسر البدايات وإيقاعاتها التي شاخت في حاضره ولم يستمتع بثمارها بعد، وكأننا في رحلة شعرية طويلة رسمت طريقها معاني سقطت عنها أوراق الحلم ؟.

أم هو الرحيل الذي احتل قلبه الذي كان ينعم بالحب؟

وكأنه يردد مع محمود درويش في قصيدته " هذا خريفي كلّه":

فَتَّشْتُ عن نفسي، فأرجعني السؤالُ إلى الوراءْ

لا شيء يأخذني إلى شيءٍ. وينسدلُ الفضاءْ علىَّ مشنقةً ويندسُّ المدى

في ثُقْب إبرة عاشقةْ

جرحي هواءٌ للهواءِ وأين نفسي بين ما

يسطو على نفسي ويرفعها رُخاماً للهباءْ.

هذا خريفي كُلُّهُ

كُلُّ الشوارع أوصلت غيري إلى طرف السماءِ

فأين أذهب، أين أذهبْ؟ (15)

ارتكز الشاعر على لحظة الاسترجاع وهو ينقلنا من لحظات مفعمة بالبساطة، والحلم الساذج إلى لحظة اختزل فيها كل أحلامه التي ماتت. (فحتى الهواء انتحر)..

إنه تدفق سيكولوجي يحيلنا نحو خيبات جمعت بين جزالة المعنى وعمق الرؤيا. يقول:

أنا الربان الأعمى

استعجلت اليابسة

فاصطدمت بما يكفي من جبال الجليد

سأنتظر الموت هنا بهدوء

فلا داعي العاصفة.

فالبنية النحوية التي عانقت الديمومة داخل هذا النص قد ساعدت على خلق أسطورته الخاصة، وجعلت أرض لغة الشاعر خصبة تخييلا وتصويرا.

(أنا الربان الأعمى)؛ تحاول (أنا) الشاعر أن تعطي للقارىء صورة حسية مشبعة بأخرى بلاغية تنفذ في عمق الأشياء، إذ لا يرى العالم إلا من

الداخل، لأن أحاسيسه هي التي قادته كي ينقل إلينا صورة فوتوغرافية فتحت من خلالها الانزياحات أبوابها.

إن استخدام تقنية السرد الممتع، يفتح باب الذكريات على مصراعيه، إنه تداعي حر ينقل إلينا بتفاصيل دقيقة صورا تدفع القارىء إلى التعمق في النزعة الدرامية التي يعيشها. فـ"الهندسة الفضائية للقصيدة المعاصرة، تفرض على المتلقي أن يشتغل على ثقافة العين، أي تفعيل حاسة البصر كآلية معرفية في مقاربة تشكيل الخطاب الشعري المعاصر." (16)

و"القصيدة عند عبد الرحيم الخصار أشبه بمقاطع فيلمية، إذ حالما يقرأ المتلقي النموذجي القصيدة، تتلاشى الكلمة في مفعولها الصوتي وتتراءى أمامه لقطة بصرية تخاطب العين أكثر مما تخاطب الأذن والعقل."(17)

هكذا تحاولُ نصوصُ الشاعر أن تربط بين ما هو خفي بالظاهر، وتُحَول الواقع المادي إلى آخر يتحرك بين دواليب الصراع الصارخ، وكأن قلبه البلوري الشفاف مثقوب تنزف منه قصائد تمشي فوق الماء. "فالإنسان في كل تجربة من تجاربه يخوض معركة مع نفسه أحيانا، أي مع ذاته، وأحيانا أخرى مع الآخر، أي مع ذوات أخرى قد تكون ذواتا علوية ، أو طبيعية أو إنسانية، أو أي نوع من الذوات التي يصطدم بها الإنسان في حياته." (18)

يقول:

ثلاثون عاما وأنا أركض في حلبة الكوريدا
أتوهم أنني انتقم من المناديل الحمراء

والآن صرت أتهادي موشكا علي السقوط
وفي عيني تلمع القصور التي لم أصلها
يلمع الشراع الأبيض لسفينة تركتني في الميناء.

يستعير شاعرنا حلبة مصارعة الثيران المعروفة بالإسبانية (corrida de toros)، كي ينقل للقارىء مسرحا جديدا لأوجاعه، فهو ذلك المصارع الذي يركض في جراحه، فلا يجد غير الوهم ينتقم من خلاله، فهل كانت القصيدة هي ذلك الدرع الذي يحميه من السقوط بين براثن الصرخات؟

2. بؤرة ضوء

نصوص الشاعر عبد الرحيم الخصار عميقة في دلالاتها وثرية في بعدها الفني، فهل هو ذلك المشاكس الذي يقود إيقاع المعنى مثل مايسترو تنمو في كفه أشكال لا متناهية من الدلالات محاولا خلق عالم جديد برؤيا مختلفة؟

نعم؛ إنه كذلك.

فهو مثل ناسك تعرت روحه في حلبة المعنى حين توضأ من نهر العشق وهو يمد للغاوين يدا من الندى.

لكن؛ لماذا جعل من الأرزاء وقودا لضلوعه، وأضحى مثل فراشة عمياء تحترق بضوء الحقيقة الوحيدة التي يراها؟.

ليقتبس من جو أسطورة جلجاميش حكمته: "إن الحياة التي تبغي لن تجد".

يقول:
في وضح النهار
وبعيون غير مغمضة
رأيتني أكبر في أحلامي
قامتي غارت في السحاب
وبخطوة واحدة عبرت أكثر من نهر
راوغتني غيمة داهمتني
أومأت للشمس فسقطت.

إن الإيحاء الكامن في (الشمس) يكشف الجانب الجمالي في التصوير، وجانبا آخر رمزي. فالشمس محور الوجود وهي القوة المحركة للحياة، لكنها هنا ترمز إلى الإبداع. فهل هذه الطاقة التخييلية تشعره بالطمأنينة؟

فالخروج من أنوار الشمس (نهر الكتابة = الحلم)، قد جعله يرى الواقع الذي ابتلي به الإنسان المعاصر.

يقول:

دسست أشجارا في جيبي فاخضرت يداي
و حين أيقظني رذاذ النهر من أحلامي
رأيتني أنحدر من الخرافة
تضاءلت حتى أن أقدام النمل
كانت تدوسني بلا رحمة.

إن هذا الإشعاع الوجداني يمثل نوعا من الخذلان، فالشاعر يدخلنا إلى عالمه الخاص الذي تصبح فيه الكتابة حياة.

(دسست أشجارا في جيبي) ⬅ (اخضرار يديه) = الإبداع

فالذات الشاعرة تقطع المسافات لتوغل في همومها، لأن الاستعارة هنا تلتحم بمؤشرات انفعالية يقدمها الشاعر للقارىء في لحظة (الاستيقاظ من الحلم).

وهنا تسوقفنا الصورة البلاغية؛ (أقدام النمل التي تدوسه دون رحمة)، فرغم غرابة التشبيه، إلا أنها تبعث في النفس فيضا من المعاني الحاملة لدلالة اليأس وحرقة الأنفاس، "وقد يغير الشاعر المعايير والمقاييس الخارجية تغييرا متعمدا لخلق عالم جديد، وعجيب وغير مألوف." (19)

فهذا التضاؤل شل حركة الشاعر وأفقده القدرة على الاستمرار، فيا لهذا الأنين الذي يحاول ردم هُوَّةَ الظلام ببياض وحبر!. متناغما مع بودلير الذي يقول:

فالأمل يبكي مقهورا

والقلق الفظيع المتجبر

ينحني فوق رأسي ليغرس فيه

علمه الأسود. (20)

وتبقى الكتابة مرفأ أمان للشاعر، وإن كانت هذه الهوية وهمية لا تمنحه الخلاص الذي يتوق إليه.

يقول:

أمد يدي إلى ظلمة لا نهاية لها و أسبح في مياه غادرة

فماذا أفعل فيك أيها العالم و كل أملاكي قلم و ورقة؟

أسهر الليالي أشذب الكلمات.

هكذا؛ يُحَوِّلُ عبد الرحيم الخصار بمهارة بنية نصوصه نحو عوالم مفتوحة على العالم، فبين عُمْلَتَي البناء والهدم يصنع من آلامه مرآة يرى فيها كل واحد نفسه، إذ أضحى ذلك المتكلم بصيغة الجمع في محفل الذات المبعثرة على رصيف الواقع. "لأن النص مرآة يتمرآى فيه قارئه على صورة من الصور ويتعرف من خلاله على نفسه بمعنى من المعاني".(21)

يقول:

الشلل الرعاش
يشد أطرافي إلى حياة تحتضر
و إلى سلالم لم يعد بوسعي
الوصول إلى نهايتها.

وكما قال الشاعر الكبير يحيى السماوي:

أنا أتألم ؟
إذن أنا حيٌّ أرزق .(22)

وحين يأسر اليأس قلب الشاعر ويصل العجز مداه، تنصهر ذاته في دائرة نورية. يقول :

إلهي
ها أنذا أسجد في جنائنك
خاشعا لجلالك واضعا جبهتي في التراب

أنزل المطر..أنزل المطر
لقد يبست أشجاري
فدع عصافيرك تغرد على أغصانها الميتة
ربما تعود إليها الحياة.

إلهي

نبتت أخطائي على الجدران
و دب اليأس على زجاج النوافذ و المرايا
لكن الأفكار التي أشرقت في رأسي لم تغرب
و لم يغرب اليقين الضحل
الذي يبيد شعاعه ظلام جسدي.

هنا تعرت الذات المبدعة، وصلَّت في محراب الحب الإلهي المطلق الذي يشفي كل الجروح النازفة. متناغما مع الحلاج في قوله:

أَحْرُفٌ أَرْبَعٌ بِهَا هَامَ قَلْبِي وَتَلاَشَتْ بِهَا هُمُومِي وَفِكْرِي
أَلِفٌ أَلَّفَ الْخِلاَئِقَ بِالصُّنْعِ الجَمِيلِ فَلاَمٌ عَلَى السَّلامَةِ تَجْرِي
ثُمَّ لاَمٌ زِيَادَةً فِي الْمَعَالِي ثُمَّ هَاءٌ بِهَا أَهِيمُ وَأَدْرِي(23)

خاتمـــة

احتفت قصائد الشاعر الكبير عبد الرحيم الخصار ببكائيات تخترق سراديب وجدانه، لتزهر في روحه غيمات تترك حبرها الخفي فوق سرير شتاء طويل، فأي رماد هذا الذي تنبعث منه ذاته كي تنتقل من الفضاء الفردي إلى آخر إنساني يترجم حكايا الألم الذي يغازل خد قصيدته؟، مرتكزا على الأسلوب الغنائي السردي الغارق في نبيذ الحزن.

فـ "في شعرنا المعاصر استفاضت نغمة الحزن حتى صارت ظاهرة تلفت النظر، بل يمكن أن يقال إن الحزن قد صار محورا أساسيا في معظم ما يكتب الشعراء المعاصرون من قصائد. (...) ويقال إن هذه النزعة الحزينة في شعرنا المعاصر ليست إلا نوعا من التأثر بأحزان الشاعر الأوروبي الحديث الذي عاين طغيان الحضارة المادية على الروح الغربي بخاصة في القرن العشرين" (24).

وما الكلمات الشجية التي استحضرت الحنين ورموزه سوى محاولة الذات لاختراق جدار الماضي والتحرر من علاقة حملت الكثير من الدلالات، التي كان لها صدى مثير على مستوى الإبداع الشعري.

وما أعظم لوركا حين وصف نفسية الشعراء بقوله :

الشاعر شجرة
ثمارها الحزن
وأوراقها جافة.
لكي يبكي الأشياء الحبيبة إلى نفسه. (25)

الهوامش

*ديوان "أنظر وأكتفي بالنظر"، صدر عن دار الحرف للنشر والتوزيع وبدعم من وزارة الثقافة المغربية 2007. يقع الديوان في 128 صفحة من القطع المتوسط، ويضم 12 نصا. صدرت النسخة الإسبانية "عن دار النشر Diwan Mayrit . ترجمة عبد الله توتي .2019.

♦ اعتمدنا على النسخة وورد المرسلة من طرف الشاعر.

1. د .سيد رضا مير أحمدي. مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، فصلية محكّمة، العدد الحادي عشر، خريف ١٣٩١ هـ.ش /٢٠١٢م أشكال الحنين إلى الماضي في شعر بدر شاكر السياب. ص:151.
2. النوستالجيا: المصطلح الطبي الذي انتهى إلى حالة شاعرية

https://manshoor.com/society/nostalgia-illness-and-meaning/

3. https://lasem.semnan.ac.ir/article_1348.htm أشكال الحنين إلي الماضي في شعر بدر شاكر السياب

مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، فصلية محكّمة، العدد الحادي عشر، خريف ١٣٩١ هـ.ش /٢٠١٢ م د .سيد رضا مير أحمدي.ص:151.

4. من حوار https://elaph.com/Web/Culture/2008/3/314765.html أجراه مع الشاعر عبد العزيز الراشدي.
5. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية. يونيو 2010 العدد السابع "فعل القراءة وإنتاج المعنى قراءة في عاشق من فلسطين "لمحمود درزيش: الأستاذة نعيمة السعدية، جامعة محمد خضير بسكرة بالجزائر.
6. زينب عبد العزيز العمري. شعر العقاد، (الرياض : ط دار العلوم، 1981 م)، ص 221 .

7. علي جعفر العلاق. في حداثة النص النص الشعري، (عمان: دار فضاءات، ط3، 2013م)، ص11.12.
8. yazidaldirawi.blogspot.com
9. أشكال الحنين إلي الماضي في شعر بدر شاكر السياب. https://lasem.semnan.ac.ir › article_1348 . مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، فصلية محكّمة، العدد الحادي عشر، خريف ١٣٩١ هـ.ش /٢٠١٢م ص:153.
10.كلمان باركس، يد الشعر، ترجمة عيسى علي الكاعوب، دار الفكر دمشق،. ط1 1998، ص 143.
11.دراسة جمالية التشبيه في شعر نوري الجراح.

https://jecall.alzahra.ac.ir/article_5404.htm

12.أرض الضياع. رائعة ت.س. إليوت. ترجمة ودراسة نبيل راغب. الهيئة المصرية العامة للكتاب. المركز القومي للترجمة،2011 . ص: 51.
13.فنية التكرار عند شعراء الحداثة المعاصرين |عصام شرتح |مجلة مجلة رسائل الشعر (العدد التاسع ، كانون الثاني 2017).
14.https://konouz.com/ar/الإبداع-الأدبى/الأدب-العربى/الشعر/العصر-الحديث-و-المعاصر/فاروق-جويدة/وحدي-على-الطريق.
15.محمود درويش. الأعمال الشعرية الكاملة، ج3، ص:53.
16.عامر بن أمحمد. الخطاب الشعري العربي المعاصر من التشكيل السمعي إلى التشكيل البصري. 'قراءة في الممارسة النصية وتحولاتها (أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في النقد العربي المعاصر).

https://shaqhaf.com/book91863-10.html

17. https://elaph.com/Web/Culture/2008/8/355006.htm عبد الرحيم الخصار: أنظر وأكتفي بالنظر محمد الأزرق.
18. عز الدين إسماعيل. الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية. دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة، ص: 284.
19. د. عدنان حسين قاسم. لغة الشعر العربي، الطبعة الأولى 2006، الدار العربية للنشر والتوزيع، ص:65.
20. شارل بودلير. أزهار الشر، ترجمة حنا الطيار وجورجيت الطيار.علي مول) ص:74/73.
21. د.علي حرب، قراءة ما لم يقرأ: نقد القراءة، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 6،1989، ص:41.
22. https://www.almothaqaf.com/b/nesos2019/954113
23. www.aldiwan.net/poem67640.html
24. عز الدين إسماعيل. الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، مرجع سابق. ص: 352.
25. محمد أمين بنيوب. مسرحية "سماء أخرى".. رحلة في قصيدة شعرية ملحمية حالمة. 1. ديسمبر, 2019 https://bayanealyaoume.press.ma/.

عبد الرحيم الخصار
العزلة
فرد من العائلة
عبدالرحيم الخصار
أخيرا
شعر
عبد الرحيم الخصار
القُبطانُ البَرِّيُّ
ABDERRAHIM EL KHASSAR
MIRO Y ME BASTA CON MIRAR
رواية
عبد الرحيم الخصار
جزيرة البكاء الطويل
قصص
عبد الرحيم الخصار
عدّاء المسافات القصيرة
عبد الرحيم الخصار
خريف فرجينيا
رحلات إلى أمريكا وأوروبا
يليها: في منزل كافافيس
شعر عبدالرحيم الخصار
أوهام تك تيرانداز

الحقيقة هي أن الشاعر لم يعد يحلم بأن يغير العالم، فالعالم لا يغيره الشعراء، أو على الأرجح لم يعد الشعراء قادرين على التأثير فيه، كما كان الأمر من قبل. هذا الكم الهائل من الحروب والصراعات والأحقاد ...لا يملك الشاعر أمام كل هذا سوى أن يغضب ويتألم قليلا ثم يواصل أحلامه.

***من حوار محمد الأصفر مع الشاعر. جريدة القدس الإثنين 28 أكتوبر 2019**

الطريدة الرابعة

محبرة الظلال

1. نوتات من لحن الاغتراب

تردّدت ظاهرة الاغتراب عند كثيرٍ من الشُّعراء على مَدار التَّاريخ ، سواء كان اغترابا نفسيا أو اجتماعيا، وقد تولد هذا الشعور نظرا لظروف الحياة والأزمات التي يعيشها الإنسان المعاصر. و" الاغتراب هو شعور الفنان بأن العالم كله سجن أقحم فيه مرغما فكبله وأشعره بأنه غريب عن أهله وناسه".(1)

وتحتل غربة الروح حيزا كبيرا في شعر الشاعر المتميز عبد الرحيم الخصار، إذ يتحرك بشكل تراجيدي ليفصح عن زمن يترجم أكوانه.

يقول أحد النقاد: "فكرة الإنسان عن الزمن أو إحساسه به من الأمور المعروفة التى لا تحتاج إلى بيان لأن كل إنسان يدرك الوقت الذى يحيا فيه").(2)

والشاعر عبد الرحيم الخصار اختار الوحدة مرآة ليرسم زمنه النفسي من خلال صور رمزية ولغة تواصلية صنعت من السرد لوحة فنية مختلفة الدلالات. ويلجأ الشاعر إلى السرد لالتقاط مفردات الواقع وتأمل حركة الحياة من حوله رغبة منه في الاحتفاظ بها والتداخل معها، لأنه يشعر بالاغتراب وفقد الحياة يوميا"(3) وإذا كانت وظائف العنوان كما قال (شارل جريفال) "تتحدد في ثلاثة أمور، التحديد والإيحاء ومنح النص قيمته".(4)

فإننا نعتبر قصيدته التي تحمل عنوان "الوحيد" بوابة عملاقة للولوج إلى مدارات الشاعر التي تلتقي بكل اختلافها في كف الوحدة.

يقول : (كانت الفكرة تمر بطيئةً مثل عقرب في ساعة، زرعتُ الوهم في الأصيص و عرفتُ أنه سينمو، يؤلمني التفكير، و عيناي تؤذيهما دائما الأشياءُ التي تلمع، و جوارحي ترتاح فقط للساعات المعطلة. سيبدو لهم الأصيصُ فارغا. لكن نبتةً غريبة كانت تصعد باتجاه السقف، و لم يكن أحد يراها سواي، نبتة غريبة وعالية، وشيئا فشيئا تتخرب الغرفة، كانوا يبتسمون بشفاه واثقة وعيون تترنح، و كنتُ الوحيد الذي يغمره التراب.)

إن الفكرة التي مرت بطيئة في بداياتها قد زرعت الوهم في حياته، هذه النبتة التي كان يسقيها من خلال قراءاته لكتاب مختلفين.

فهل وحدة الشاعر مرتبطة ذهنيا بانشغاله بالحقل الشعري؟، أم هي تلك الفترة الجانحة التي يسافر فيها بين المفردات ليأسس عوالمه المختلفة والتي يحاول من خلالها أن ينسى الواقع الذي دفن أحلامه تحت التراب؟

فطبعا حين نزرع وهما لا نمسك غير الفراغ، (زرعتُ الوهم في الأصيص= سيبدو لهم الأصيصُ فارغا). فهل حقا هو كما يبدو، أم أن نظرة الشاعر للأشياء مختلفة عن الآخرين؟

هكذا تتنفس محطات الشاعر عبد الرحيم الخصار أنينا يباغتنا في كل نص من نصوصه، وكأنه يفتح ذاكرته الشعرية على مراثي لا ينطفئ أوارها.

يقول:

اِهدأ يا قلبي

كلانا أخطأ الوجهة

أنت أعمى

و أنا وثقتُ بك.

إن التركيبة النفسية في هذه الشذرة التي أخذناها من نص طويل تحت عنوان "طيران حر"، تلمِّح ولا تصرح عن فشل الشاعر في الوصول إلى مبتغاه، إذ تحول الحب عنده إلى عتاب مرير وكأنه وصل إلى نهاية الطريق.

يقول:

أُخرج الماضي من الباب

فيعود من النافذة.

هذا الحب الذي لا يكاد يطرده حتى يعود إليه من جديد، مشيرا للتعب الذي يعاني منه. (كيف أحدثكِ عن الحب و القطارات تجتاح غرفتي؟) يقول.

وكأنه يقول مع الشاعر فاروق جويدة "فلا البعد يعني غياب الوجوه ولا الشوق يعرف قيد الزمان".

ويبقى بيته؛ هو عالمه الذي يطلق فيه عشرات العصافير من بين أصابعه، وكأن دموعه التي طالما سقى بها مشاتل وجوده، تجد بعض الطمأنينة في وحدته.

يقول: (الجو حارٌّ خارج البيت، لكنّ المطر يسقط في غرفتي، وبعد قليل ستنمو حديقة فوق الطاولة، ستصعد شجرة من رفِّ الكتب، سينحدر شلال من السقف، و سيصير بيتي غابة.)

إنه الدفء بمدلوله المعنوي الذي نقل إلينا بصدق عواطف الشاعر، فلماذا حول غرفته إلى عالم بهيج يخلق من سقفها أمانا لروحه وهو يتنقل بين كتبه؟.

لقد اجتاحت الصور الحسية التي استخدمت العناصر الطبيعية (المطر، حديقة، شجرة، شلال، غابة) هذا النص، "وكأنه يحاول أن يبني وجودا خارجيا لعالم من الموجودات الداخلية، أي يحاول أن يربط ويوحد بين الذات والموضوع"(5).

لكن لماذا هذا البكاء الخفي الذي نسمعه بين رنات الحروف، فهل أصبح للحياة اتجاه واحد هو نهر الأحزان؟

يقول:

(ما ذنبي؟

الجثث التي تعفنت من كثرة المشي بلا جدوى كدستُها في عربة الخشب وركضت بها في الشارع، لم أنتبه للموتى الآخرين ولا لعيونهم الوجلة وهم يصرخون متوعدين على الرصيف، هرولتُ لأن الوقت كان قد فات، وعلى مقربة من الحافة حبست أنفاسي ودفعت العربة بعينين مغمضتين إلى المنحدر.)

يخلق السياق اللغوي دهشة، وكأن الشاعر يرصد صراع الموت مع الحياة، وبفعل لا إرادي يربط جسرا بين الحاضر والمستقبل وكأنه يملك قوة رؤيوية تلغي المألوف وتخترق الواقع المعاش بسلبياته، باحثا عن يوتوبياه. فـ "الشعر العربي الجديد يحاول أن يكون تجربة شاملة، وأن يكوّن موقفاً من الإنسان والحياة والعالم.)(6)

إنها ألغاز يحسن الشاعر رصها في البنى التحتية لنصوصه، كي يستطيع القارىء الوقوف على عتبة المعنى.

عربة الخشب=عربة الموتى/ إخفاء متعمد للفظ الأحياء

فهل كانت (عربة الموتى) هي مكتبة الشاعر الذي يرى بأن لا جدوى من كل هذه الكتب التي ينادم فيها الأموات أكثر من الأحياء؟

أم تراه كان يتهجى جثث موتى افتراضيين حين كان يهيم بين دروب الشعر، حتى تحولت كلماته إلى مقبرة كبيرة دفن فيها لحن انهيارهم؟

فالذين يخلقون هذا المشهد المؤثر، مجرد أسماء بلا معنى ولا ملامح، وأرقام في سجلات الحياة، يرتجفون، ويصرخون، تاركين نزيفا يسري في نهر العمر.

إنهم المهمشون الذين لا أحد يسمع نبضهم، فهل هي لحظة يأس قاتل تنصهر مع قاله لوركا (لم يبقَ غيرُ الموتِ، والموتُ فقط). (7)

2. عزف يغازل أوتار الكمان

يتخذ الشاعر من بيته ملاذا لكل هواجسه، لا يسمع غير صدى الذكريات تؤنس وحدته،يقول:

(اندلقت الكلمات في هذا البيت، و لا أحد بمقدوره الآن أن يصل، وأنا لن أخرج من هاته الغرفة لأبحث في الطرقات عن الحب. أنا لا أبرح مكاني، أجلس كأي عجوز مخذول، أسمع موسيقى من القرن الماضي وأصغي إلى نحيب الذكريات، أوصدتُ كل باب بقربي).

يقول عنه صديقه الروائي المتميز د.عزيز الراشدي: "يقضي نصف وقته في الغرفة يكتب نصوصا شعرية بعناية خاصة ويعد مقالاته بانتظام لبعض الجرائد، يقضي بقية الوقت يشرب الشاي، يصغي للأغاني القديمة، فهو مهووس كبير بنجاة الصغيرة وعبد الوهاب ومحمد الحياني، ومهووس أكثر بمحبة أصدقائه .."(8)

يفضل الشاعر إذن؛ بيته على الخروج، فالبيت هو نهر سعادته، والمكان الجميل الذي يحتوي آماله وآلامه، حيث يصور لنا إحساسه الذاتي من خلال تجربته العاطفية المكتوبة بنيران الحنين. ورغم عيشه مع ذكرياته يفتح نافذة في حاضره "و إذا كان الحب المجنّح سيأتي فالنافذة لا تزال مفتوحة." يقول.

تجتاح الديوان مشاعر مختلفة من الهموم والأوجاع، فشكواه ليست متعلقة بالحبيبة الراحلة عنه فقط، بل هناك لحظات يرثي فيها العالم الذي يصيبه بالذعر. قائلا:

"لم أسافر كثيرا، لكني رأيت العالم برُمَّته في نومةٍ قديمة، كان خرابا يزحف من الدّغل، و يوقظني مذعورا ارتطامه بقوائم السرير، خرابا و يتفتَّح فيه الورد."

يكرس الشاعر مفردات تصل بالقارئ إلى محطة جديدة من اليأس والضياع، إنها خيبات حاول أن يضعها في إطار درامي تجمع ثنائيات ضدية:

لم أسافر كثيرا ≠ رؤيــة العالــم

خراب (مرتين) ≠ يتفتح فيه الورد

شخَّصَ الشاعر عبد الرحيم الخصار في لقطات بصرية سريعة دوال ترتكز على الشؤم (الخراب، الذعر)، منطلقا من رؤية دقيقة للعالم الذي حول أحلامه إلى كوابيس تمتد في البياض، حيث تخطى حدود الزمان والمكان.

فهل منامه اختراق للاوعي وانسياب للاشعور حيث الأنا المغيبة تنتج رموزا تستعيد حاضره؟

وهل كانت القصيدة هي ذلك السفر الذي أتاح له رؤية العالم بعين زجاجية تقتحمها أشعة الدمار؟

ورغم ذلك تطالعنا دلالة إيجابية كنوع من الرجاء والأمل في قوله:

خرابا و يتفتَّح فيه الورد.

إذ يرفض الشاعر في حركة ديناميكية الأطلال التي تحاصر روحه، إنه الجمال الذي ينتصر على القبح والذي يستمد طاقته من الشعر، ولكن إلى متى يبقى متفائلا؟

يقول:

أعزف بمفردي في الليل
أدبّ دون أن أدري باتجاه الموج
و كلما اشتد اللحن اشتد الظلام و اشتد الهدير
تسقط دمعتان قديمتان على الكمان
أدرك أني هش
و ليس بمقدوري أن أخطو
أحس برمشي ثقيلا مثل جبل
و بقدمي و قد خدَّرها المشي
أسحب القوس كما لو أني أسبل جفنَ ميت
و أجلس حانيا رأسي
ممسكا بحفنة رمل
متحسرا مثل رجل يموتُ رافضا أن يموت.

يهيمن فضاء (الليل) كمساحة زمنية اختارها الشاعر ليخلق صورا مرئية تحاول الكشف عن عمقه من خلال لغة خلخل بنيانها وشكلها بشكل مختلف، كيف لا؟ و "الشاعر الجديد يخلق لغة ذات دلالات وارتباطات مغايرة للغة التي نستعملها."(9)

فهل قصد الشاعر بالزمن الحاضر في هذا النص (أدبُّ، أحسُّ، أسحبُ، أجلسُ) زمن الكتابة؟، أم تراه يحيلنا على استمرارية الحدث وسيرانه في المستقبل القريب، مسلطا الضوء على الذات للتعريف بالمحنة التي يحياها؟. إذ "يشكل الزمن أهم دعامتين في هيكل الفعل إلى جانب الحدث الذي يجري ويبسط فيه،...ولا نستطيع غالبا، أن نتصور حدثا بلا زمن".(10)

والليل هنا؛ هو تلك الفسحة الزمنية التي صنعت هذه الصورة في ذهن المتلقي، والتي غذاها الشاعر بهذه الدفقة الشعورية، حيث جمع بين السردية والشعرية لينتج نصا مفعما بالتوتر النفسي.

إنه زمن متخيل رهين بعالم الشاعر الداخلي، إذ حول ذبذباته الروحية نحو دلالات ورؤى جعلته عازفا على أوتار الليل.

فالنص مزدحم بعدة إشارات تمثل الانهيار والقلق المشحون بالفقد، إذ الموت هاجس غامض في النص، فبين الاستسلام والصمود تختلج الأسرار، وتنفعل الذات وهي ترسم صورة شعرية تترجم فلسفة باطنية للصمود وعدم الاستسلام.

يقول: "أستعيد سنواتي الأولى على طاولة صغيرة في الصف، أكتب اسمي مزهوا بالطباشير، و أختلس النظر إلى ابنة الجيران، أستعيد سنوات أخرى عدتُ فيها من مدينة الأشباح مطرودا من سكة الحديد، حيث كانت آلهةُ الأرض تتلاعب بمصائرنا. الآن، و أنا في الثالثة و الثلاثين، بجيشانٍ أقلّ، أنظرُ إلى صورة لي في المقصورة، و أتساءل: هزمتَني أم هزمتك أيها القطار؟ "

فـ "في الشعر تشكل القصيدة أحداثها، وتكون أحداث الواقع في الخلفية، تلقي بظلالها عن طريق الإيحاء أو الإشارة، فالذي ينشغل به الشاعر فلسفة الحدث وليس الحدث في حد ذاته، لذا الحدث الشعري تخلقه اللغة، فهو يمتزج بالواقع وينفصل عنه في آن".(11)

هكذا خلق الشاعر حيزا مهما للفضاء الحكائي الذي يحمل عالم الذكرى، إنها رحلة استرجاعية لعمر تتسارع نبضاته في كف الزمن الذي لا تتوقف عقارب دورانه.

محاولا من خلال الاستفهام، تأكيد حالة القلق التي دفعته إلى هذا البوح، والتي تأخذ فيه الذات طابع التحول المستمر (أستعيد، أختلس، أنظر، أتساءل...). في إيقاع نفسي تنقَّل بين الحقل الزماني (مراحل من عمره) وحقل الحيرة (هزمتَني أم هزمتك أيها القطار؟). كسؤال معلق ومفتوح على المستقبل.

أ. حلم مبلل بالمطر

تخلق الذات الساردة حركة تتدفق بين عوالم الشاعر التي تسترسل من خلال الاعتماد على ضمير المتكلم لإعادة صياغة رؤيته للأشياء. يقول:

ربما أسعدني في ما مضى أن أنطّ بين الأشجار
و أسبح في البرك
و أجدّل الورود لفتاة لم تصل
ربما روضتُ العاصفة
لكنها الآن تسحبني من ضيعة إلى أخرى

مثل جندي كسيح
نكلّ في شبابه بكتيبة حرب.

إن التكثيف الرمزي هنا مشع بإيحاءات نفسية يمتزج فيها الخوف والقلق، فأي عاصفة يقصد الشاعر بهذا المد الاستعاري؟

(ربما روضتُ العاصفة)

لقد استدعى من الطبيعة (العاصفة) بحمولتها الغاضبة، فاغرورقت شرفات قلبه بالصراخ، فهل قصد الظاهرة الطبيعية الخارجية التي تدفعنا إلى الاحتماء منها؟ أم مرايا ذاته الداخلية التي بلغت ذروة انكسارها ؟

إذ تحولت دلالة (العاصفة) من الحقل الطبيعي إلى آخر توغل في نفسية الشاعر التي تحاول الخروج من متاهة الوجع، وعتمة الحاضر المليء بالاضطراب والبؤس. فبين (ربما) التي تكررت مرتين، سقط الشاعر في انخطاف رهيب، وأضحى مثل جندي كسيح خسر بطولات الحياة، فكل أحلامه تحكي عن هزيمة مبكرة. لكن؛ سرعان ما يتحرر من كل شيء، حين ينزوي في عالم الكتابة، مشيرا إلى حقول الألغام التي تودي بحياة الكثيرين خاصة الأطفال. حيث يتمنى أن يحول جحيمهم إلى حقول ورد، فهل يستطيع ذلك بإبداعه؟

يقول:
سأنزع الأسلاك الشائكة و أغرس الصنوبر
و هذا الحصن العالي سأغطيه باللبلاب
سأرسل الكتائبَ سعاةَ بريد
و أجعل الثكناتِ مشاتلَ ورد
و إذا ما خطا الصبية في حقل الألغام
سيصير كل لغم دالية.

فهذا النص المفتوح على الديمومة والاستمرارية يغوص في عالم الشاعر الوجداني ليلامس الواقع المحسوس الذي جعل الذات تغترب عن ذاتها، حتى خِلنا الألفاظ أشلاء مبعثرة من هول المعجم الحربي الذي استعمله (الأسلاك الشائكة، الحصن العالي، الكتائب، الثكنات، الألغام.) والذي مزق الجسد الإبداعي من أجل العبور إلى ضفة أخرى نجد فيها الشاعر عبد الرحيم الخصار يرقص على أنغام إنسانية حملت عباراته تدفقا وجدانيا، والتي حولت البياض الملىء بآليات الحرب إلى حقول مزينة بالورد والعصافير.

فهل الشعر قادر على إعادة إنتاج العالم من خلال التخييل ؟

يقول :

و هذا الجنرال المدجج بالرعب
سأصرف نظره عن الجثث
و بدل المسدس سأمنحه ريشة.

فالشاعر عبد الرحيم الخصار يبتعد عن الصورة المرآوية التي لا تغوص في همومه الذاتية فقط، خالقا وشائج بين أجوائه النفسية والواقع، مشحونا بهموم الآخر. لكن ماذا سيفعل شاعر يحاول تصوير جوهر الأشياء بالكلمات، ليخلق انصهارا بين ذاته والعالم؟، إذ «لم يكن المثقف يوما ما منفصلا عن واقعه. حتى وإن ادعى العزلة والهروب، لكنه يقف اليوم حائرا، فأصوات القنابل والمدافع أعلى بكثير من صوته. هناك من يدير رحى العالم، المثقف نفسه تطحنه هذه الرحى، وأقصى ما يمكنه هو أن يرفض ويُدين."(12)

فالشاعر لا يتعامل مع الواقع المعطى كما هو، فهو «يتجاوز الحدث كموضوع مستقل، وينظر إليه كجزء من حركة عميقة طويلة. يتأثر به، وقد يستخدمه، لكن بشكل يتجاوزه كمظهر، ليرى فيه ما وراءه." (13)

يقول:

و إذا لم يسمع صراخنا أحد
فسأعيد كل شيء إلى مكانه
سألملم عصاي و قبعتي
و أكنس من على الأرض أوهامي
سأسحب الستار إلى نهايته
ثم أمضي.

تعد الصورة الشعرية أداة فعالة في إثراء العمل الأدبي وتساهم في التعبير عن المعاني بالعبارات المجازية التي تولد المتعة والروعة، لقدرتها على تحويل صورة الجامد والصامت إلى صورة الحي المنطلق،وتسمح باستمالة القارئ وتتيح للفكر متعة الكشف عن الدلالة أو خلقها وفق ما يتصوره القارئ أويمكن أن تكون قد دارت في خلد الشاعر . (14)

والشاعر عبد الرحيم الخصار يقرر في هدوء بعد أن رسم صورة صراخه، أن يوقف التيار ويعيد كل شيء إلى مكانه، وكأنه قد تلاحم في أعماقه ما يخرجه من حالة التيه، حيث تكتسب عباراته جمالية أو ما يسميه "رالف لنتون "الاستجابة إلى الحاجة الجمالية الذوقية لذى الإنسان". (15)

ب.إغفاءة أمام باب الليل

لليل قصص كثيرة في الشعر العربي، فقد كان نافذة سحرية يتأمل من خلالها الشاعر ذاته، فالشاعر الكبير أحمد بلحاج آية وارهام يراه بيتا

للخرافة، إذ كانت الحكايات تأسر الطفل في جوفه، لكنه لا تخيم عليه غير ظلال الصمت والأشجان. يقول:

أَلَلَّيْلُ بَيْتُ خُرَافَـةٍ رَضَـعَ الصَّــدَى أَطْبَاءَهُ، فَتَبَسَّمَـتْ ظُـلَـلُ الْمَـدَى
نَــأْوِي إِلَيْـــهِ بِمُهْجَــةٍ مُبْتَلَّــةٍ بِالصَّمْتِ،أَوْ شَجَنٍ أَحَدَّ مِنَ الْمُدَى
فِيهِ الطُّفُــولَةُ تَرْتَــوِي بِحِكَايَــةٍ عَنْ مَحْوِهَا عَجَزَ الزَّمَانُ، فَعَرْبَدا
(16)

ومن الشعراء من يستمد من سواده طاقة اعترافه بكل أحزانه.

يقول الشاعر امرؤ القيس:

ولَيلٍ كَمَوجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدولَهُ ** عَلَـيّ بأَنْـواعِ الهُمُـومِ ليَبتَلـي

فإذا كان هذا الليل يثقل على أنفاس الشاعر ويخنقه بكل أنواع الهموم، فإنه يلتقي مع الشاعر عبد الرحيم الخصار الذي يشكو طول السهاد.

يقول:

النهار يتلوه النهار، والليل لا يريد أن يمرّ

لكن هذا الأرق المتقلب بين حناياه، كان بسبب ليل رومانسي يمر بطيئا ومتثاقلا جعل ذكريات الحبيبة تشرق شمسا في سواده.

يقول: ليس عدلا أن تفكري في شيء آخر فيما أنا هنا أفكر فيك

فهل يتماهى مع قول جبران خليل جبران حين قال؟:

سَكَنَ الليلْ وفي ثوب السكونْ .. تَخْتَبِـي الأحلامْ

وأحلام الشاعر هي القبض على القصيدة الشاردة حين تكون كل العيون نائمة.

هكذا يتحول في سكون الليل إلى لص محترف يقتحم الغرف الخفية كي يصطاد راحة لنفسه العاشقة للظى الحروف.

يقول:

حين يخلد الآخرون للنوم
أصحو أنا مثل لص
أشحذ سكاكيني
و أعدّ الحبل و الخرج
أتربص طوال الليل
كي أسطو على الكلمات.

فهل كان عليه أن يكون شاعرا لا يستريح من حرب الحياة إلا فوق سرير الكلمات؟

إذن؛ فالليل عند الشاعر مخْبَأ للأسرار، لكن ليس كما قالت ولادة بنت المستكفي :

ترقَّب إذا جنَّ الظلامُ زيارتي
فإني رأيتُ الليلَ أكْتَمَ للسرّ (17)

وإنما كان سره الكبير هو أن يمد يده للنجوم البعيدة كي يمسك قصيدة، ولكن؛ (هل كان لزاما عليّ أن أكتب الشعر؟) يقول.

يستمر الشاعر في شذوه وهو يردم صمت الليل القاتل باختراق حجبه الكثيفة، وإرهاف السمع لخياله يطوف بأقداح الشجن كل ما يحيط به، وكأن المشاعر الذاتية الحزينة تتفجر من خلال ملامح الطبيعة التي نقلتنا إلى عالم القرية الجميلة مثل ترنيمة خالدة يناجي فيها قلبه.

يقول:

"أحدٌ ما أغضب هذه الجبال، حتى الصخور كانت ترفع أهازيجها في الليل، وتقرع الطبول و الدفوف متحلّقة حول النار، أشجار اللوز المتكاثفة مع بعضها والمتحدة كما لو أنها في حرب كانت أيضا تغمر الوديان

بالمواويل. عماماتُ الأمازيغيين ممدودة مثل جسور، وخناجرهم لا زالت تلمع، لكنّ أحدا ما أضرم النار في قصب الطريق، طمر الخزائن في سهب مجهول، و زرع بدل الأركان شجرا تأنفُه الأرض."

فالشاعر لا ينظر إلى الطبيعة على أنها شئ مادي منفصل عنه وإنما يراها امتدادا لكيانه(18)، ومن خلال ألفاظ الطبيعة نلمس رومانسية غنائية سرعان ما سيطر عليها الاغتراب والصراخ. (لكنّ أحدا ما أضرم النار في قصب الطريق، طمر الخزائن في سهب مجهول، و زرع بدل الأركان شجرا تأنفُه الأرض.)

فالرابط الدلالي الذي يجمع بين هذه الرموز هو التفاؤل والأمل الذي سرعان ما توقف، لأن غريبا ما أحرق كل أحلام الشاعر وحاول دفن رغباته الخفية.

فهل التحولات السياسية والثقافية التي تركت بصمتها على عالمنا قد خلقت رهبة في نفس الشاعر الذي أحالنا نحو ذاكرة غنية بالتراث. (عماماتُ الأمازيغيين ممدودة مثل جسور، و خناجرهم لا زالت تلمع) ؟

ليتحول إلى موسيقِيٍّ يهيم مع الألحان في شوارع نفسه وهو يستقبل الليل لا يؤنسه غير أنين العازفين.

يقول :
أنا عازف الكمان المخمور
الذي تفضحه رائحة النبيذ على القميص
يتوقف العازفون من حولي
فيما أنا أعيد اللحن للمرة الرابعة
ينظرون إليّ لكن عيوني أُغمضت
أتخفّف من ربطة العنق
أتقدم حافيا وأخترق الكراسي

أغادر القاعة و أهيم مع اللحن في الطرقات
حيث يتدفق الليل أمامي
ربما صيحاتهم تتعالى الآن من خلفي
لكنّ أنين الأوتار هو فحسب ما يملأ مسامعي.

لقد شحن الشاعر هذا النص بدلالات متعددة، إذ نمت الصور الاستعارية لاستيعاب هذه الشخصية الإنسانية التي وظفها، حيث بدت الرؤية تشاؤمية تستند على العجز، وكأن الظلمة التي كانت مرحلته الأخيرة في السرد الشعري تفتح بابا للألم.

فلماذا اختار الشاعر الحياة المُغَيَّبَة (عازف الكمان المخمور) لخلاصه الفردي من أوجاعه؟، ليخلق معادلة صعبة وهو يتناول الإنسان الممزق، وكأن النهار يتوارى في ظلمة حالكة ليشرق الليل بكل سحره.

يقول:
تغربُ الشمس
يُشرق الليل.

ركز الشاعر هنا على الليل لارتباطه بإيقاعاته النفسية، فدلالته الكلانية نبعت من وجدانه في محاولة منه للتنفيس عن معاناته.

يقول:
في الليل
حين تمسك بالقيثار
و تعزف بقميص مفتوح في البرد
و تموّج صوتك مثل ذئب جريح
أسمعُ نشيج الجنادب تحت الأعشاب.

تنقل الشاعر بين نوعين من الخطاب: (المخاطَب/أنتَ/ تُمسك، تعزف، تموج) (الأنا/ أسمع) وكأنه يخاطب غيره.

وقد أضفى على الليل حيرته وغزا سكونه بحزنه، فهذا العزف المتجول في أنحاء الروح قد منح الصورة الموحية بعدا ربط بين الذات والآخر.

فهل كان هذا مجرد إغناء للمشهد المادي المتناول؟، أم تعبيرا لدفع المتلقي نحو التأويل؟

(شاعر يمسك قيثارته ليلا وقميصه تعبث به يد الرياح، وحين يغني بصوت مبحوح تبكي الجنادب)

نظن للوهلة الأولى أننا أمام لحظة رومانسية إلا أن استثمار المجاز الشعري يحمل بعدا دلاليا وتفاعليا يخترق الذات، لإنتاج معنى جديد. فإذا كان (القميص) هو ما يلتصق بالجسد، فهل يحيلنا هنا على الخوف والتوتر والغربة التي عرفها يوسف النبي الذي خرج من جب القهر والظلم، أم على الرؤية (إعادة البصر) قاصدا التأمل؟

يقول:

فيما مضى كان يؤلمني أن الأحلام التي أراها بالليل
أبدا لا تصلُ النهار
و اليوم بتُّ مغتبطا بإرجائها
ماذا لو هجم الورد، و صار العالم برمته مجرد حديقة؟

من خلال هذا الرمز الشفاف نتساءل: ماذا لو انتصر الحلم الجميل على قبح العالم ؟

3. ملامح من أنفاس منهكة

يقف الشاعر عبد الرحيم الخصار على أرض صلبة وهو ينقلنا بين أرجاء بيته الذي يحمل أشكالا وأصباغا مختلفة. نلخصها من خلال قصائده في ما يلي:

الوجعَ في بيت لم يكن له باب	**عدم الإحساس بالأمان**
الظلام سيغمر بيتي	**الحزن العميق**
سيصير بيتي غابة	**الضياع**
بيتنا المتهاوي فوق هضبة قاحلة	**الأنقاض**
بيت بعيد بالمقبرة	**الأحلام المندثرة**
سقط رأسي هناك في بيت محاط بالأشواك	**الألم**
اندلقت الكلمات في هذا البيت	**مصدر إلهام**
الخالُ بعمامته الصفراء هو من جلب الفرح إلى البيت	**السعادة**
تبكي كلما سقط فرد من العائلة **الشجرةُ الوحيدة في باحة البيت.**	**انكسار**

فهل كان عنوان الديوان ملغما، إذ قصد الشاعر (بالبيت البعيد) باتساعه وضيقه والحامل للكثير من الأبعاد الدلالية السالفة، القصيدةَ المستحيلةَ على القبض، فكان هـــــذا مجرد رمز بناه لتجاوز صعاب الحياة؟

أم أنه البحث المضني عن وطن آخر يحمل له الأمان بدل كل هذا السواد المترنح في كف الوجود؟

لنقل بأنه الحلم المطارَد، والذي حوله إلى شاعر يقدحُ زناد خياله كي يرى ما لا يُرى، أو ليس الشاعرُ رائيا يستشرف كل ما هو بعيد من خلال موهبته؟

إذن؛ فعبد الرحيم الخصار كذلك..

إن حيز المكان (البيت البعيد) المتناول يتأرجح بين الواقع والتخييل، في محاولة منه لخلق تكامل بين نفسه والأشياء المحيطة به. والشاعر حين يميل إلى الخيال لا يهرب من الحقيقة، بل يلتمس الحقيقة كذلك في الخيــال، فالخيال والواقع، وسيلة لنقل ذلك الصراع الداخلي الذي يعانــي منه الفنان(19)

(فرّ الخلاص من بين أيدينا، لكننا لا ننتظر غودو، لا ننتظرُ أحدا، ولا نريد أن ينتظرنا أحد.) يقول.

خاتمــة

في هذا الديوان نصغي للذات المنفتحة على الأزمنة الوجودية الحاملة لكل الشفرات، وكأننا أمام رقعة شطرنج نلمح فيها فقط أنامل الشاعر ترمي بنا في عمق معانيه، ونحن لا نملك غير مظلة الاستماع لنبض جسده الضارع في هندسة المعنى. حيث حاول من خلال بنائه النصي نحت انكسار صوته، ووضع بطاقة هويته الشعرية أمام القارىء.

يقول:

و ها أنتَ ترى

لا شيء في اليد

فأنا الرجل الذي احتضن صندوقا فارغا

و توهم أنه مليء بالذهب.

الهوامش

- بيت بعيد، صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب 2013
اعتمدنا على النسخة وورد المرسلة من طرف الشاعر.

1. د.أحمد علي الفلاحي. الاغتراب في الشعر العربي. عمان. دار غيداء للنشر والتوزيع. 2013. 14.15ص:15.
2. عبد الرازق البصير. نظرات فى الأدب والنقد، سلسلة كتاب العربى الكتاب (الثامن والعشرون سنة ١٩٩٠ م ص ١٨٧.
3. د. عبد الناصر هلال. آليات السرد في الشعر العربي المعاصر، مركز الحضارة العربية، ط:2006، ص:38.
4. سامح الرواشدة. تقنيات التشكيل البصري في الشعر العربي المعاصر، مجلة مؤتة للبحث والدراسات، الأردن، ع2، 1997م.
5. د.عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره، دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة، ص:233.
6. أدونيس .أحمد علي سعيد، مقدمة للشعر العربي، ط 4، (بيروت : دار العودة، 1983م)، ص130.
7. فيديريكو غارثيا **لوركا** – بكائية إجناسيو سانشيز ميجاس.
8. من حوار https://elaph.com/Web/Culture/2008/3/314765.html أجراه مع الشاعر عبد العزيز الراشدي.
9. عدنان حسين قاسم، لغة الشعر العربي، الدار العربية للنشر والتوزيع، ط 4. 2006م، ص:51.
10. عبد الجبار توامة. زمن الفعل في اللغة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص1.

11.د. عبد الناصر هلال. آليات السرد في الشعر العربي المعاصر. مركز الحضارة العربية. الطبعة الأولى 2006 ص: 116.

12.د. عبد السلام جغدير. الصورة الشعرية في قصيدة "الأرض" لمحمود درويش دراسة أسلوبية في التشبيه والاستعارة جامعة 02 أوت5733 سكيكدة ص:6.

13.أ. د. هاشمي قاسمية. مجلة أبوليوس المجلد 09 العدد-02 جويلية 2022 الصفحات:141-123جمالية التشكيل المجازي في قصيدة "طوق الحمامة الدمشقي" لمحمود درويش: مقاربة في ضوء الشعرية المعاصرة مجلة أبوليوس المجلد 09العدد-02 جويلية 2022.

14. مجلة طنجة الأدبية عدد 61 نونبر 2016.

http://www.aladabia.net/pdf/61.pdf

15.مقال:"الشعر والثورة عند "أدونيس" حسين جبار

https://www.ida2at.com/poetry-revolution-adunis

16.https://www.facebook.com/ahmed.ouarham

17.موقع الديوان https://www.aldiwan.net/poem29565.html

18.رشيدة أغبال. الرمز الشعري لدى محمود درويش، مجلة الكلمة عدد 21 شتنبر 2008.

19.د. عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب الطبعة الرابعة، الناشر مكتبة غريب. ص 44.

طريدة النهايـــة

خلقت دواوين الشاعر عبد الرحيم الخصار أزمنة جمالية انفتحت فيها الذات الشاعرة على عوالم المعنى، وتناغمت مع ذوات أخرى على كل المستويات النصية.

إنها أشعار تفرقت بين أيدينا مثل سرب الحمام، ببندقيته الورقية التي شنت حروبا صغيرة على العالم كي تجلو عنه هذا العماء.

وتضع في جيب الليل زورق الأحلام الذي يطوف بحار الدهشة، حيث يستلقي هذا الشاعر الذي حاول حمل نبض الواقع المعاش إلى القصيدة في شتى تجلياتها.

وتكمنُ القيمة الجمالية لشعره بصفة عامة في لغته الممهورة بالألم، فقد أرانا من خلاله العالم المشبع بالمآسي والتوترات، منذ (آدم) حتى عصرنا الحالي، إذ لا يمكن فهم ذات الشاعر إلا من خلال الإنسانية جمعاء، لأنها جزء من الكل.

حاولنا من خلال هذه الطرائد الغوص بين إيقاعاته النفسية، وخلخلة بنيات شعره التخييلية التي تحمل بصمته الخاصة.

هذا هو إذن؛ الشاعر عبد الرحيم الخصار؛ أحد أهم شعراء المغرب المعاصر، الذي ساهم في إثراء قصيدة النثر في الوطن العربي.

تجربته غنية بالتفرد، فهو ذلك الرحالة بين الحروف، يستظل بظلالها ويتدفأ بأنغامها، منعزلا بين ثنايا جمالها.

"كأني شيخٌ في كهف. كأني الكهف. أكتبُ مثل نسرٍ جُنّ. أواري شقاءً في جرّة طين، وأحنو على دمعةٍ تسيلُ من ظلّي. النخوةُ قميصي والعزلةُ فردٌ من العائلة. "يقول.(1)

مستفيدا من انفتاحه على شعر العالم كي ينتج (القصيدة الخصارية) التي ترفل في التميز، حاملا قنديل الكتابة ليضيء عالمنا الإبداعي بإنتاجه المختلف، فهو يرى بأن "الشعر لم يعد بالضرورة عنصراً قادراً على تغيير العالم، لكنه شاهد كبير على فظاعات العصر وعلى إشراقاته، أيضاً".(2)

---

1. أقود قطارا في غرفة. مقطع (11)، من ديوان (العزلة فرد من العائلة).
2. جريدة الشرق الأوسط الأحد - 25 صفر 1440هـ - 04 نوفمبر 2018م. رقم العدد[14586]

سنابل من حقل الشعر

الجَمال كان ماءً في مزهريتي

أنا عازف قيثار يتكئ على أريكة

ويفكر في الماضي

يدفع قاربا في الهواء

ويعرف أن موجة ما ستُغرقه.

من الدخان تأتي كلماتي

وإليه تعود

لكن لا نار في البيت

لا مدفأة ولا مدخنة

السحر في اليدين وفي العينين

السحر مبعثه ألم قديم يستعاد

وأنت راقصة تسحق العشاق بكعب الحذاء

تسحب العالم إلى خصرها

وتقود صفا من المياومين إلى الردهة المخيفة

وأنا كهل يعبر شارعا خلفيا

وفي يده مكنسة

لا يرفع عينيه إلى النوافذ العالية

فقد سبق أن رأى نيزكا

وتأذت عيناه

الجَمال كان ماءً في مزهريتي

والحب أنا من أمسك بيديه حين كان أعمى

أنا من أزاح له الستار

كي يراه الجميع فوق الخشبة

لكن يدا فيها وردة

كانت تتألم أمام يد فيها سوط

ثم تهاوت جراف على جراف

وانتهى كل شيء.

أهدهد الحنين كي ينام

يقول لي الليل:
لن تبقى وحدك في هذه الأكمة
أنا هنا مثلك
أهدهد الحنين كي ينام.

رأيتُ كلمة ترتعش في عينيك
وترج الأشجار.
رأيتُ هداهدَ على كتفيك المتعبين
وفهودا تجثو عند قدميك
ووحوشا تلوذ بك هاربة من كهف.

ثم رأيت فرحك القديم
تجره عربة بأربعة أحصنة.
رأيت أحلامك يقودها نخاس.

قدماكَ على الأرض
وعيناك على امرأة تنزل من السماء.

الوهم جسر من خشب

والرغبة نار.
أردتَ أن تقول للعالم:
هذا ليس عدلا
لكنّ العالم أصمّ.
رفعتَ يدك ولوّحتَ طويلا
لكن وسط عميان.

قلتُ لليل:
أنا هنا أحفر هذه الأرض بأظافري
بينما الحظّ مزارعٌ في الضيعة المجاورة
مطرٌ غزير في صحراء.
أنا الرجل الذي ركض في الظلام
وراء امرأة سحرته
ثم فتح عينيه على فزاعة.

القلقُ سيجارةٌ في يد رجل يائس
والشقاء شوك يزهر في مغارة.
يطرق الماضي باب بيتي
ويطلب كأس ماء.
ربما هدّته الطريق إليّ
أنا الهارب منه.

حين كبر الحنين ولم يعد يحبو
دللته على معابرَ أخرى
وجفّفتُ ثيابي من مياهه.

يقول لي الليل:
أيامك تضع يدا في يد
وتركض دون وجهة
وأنت جالس في هذا البيت تهذي
وتراكم الكتب والقلق.

يصمتُ الليل
وأصمت معه قليلا ثم أشكو
وحين يجثم الأسى على صدره
أشعل نارا وأغني.

قُبلة مستعادة

أنا في الواقع
رجلٌ يدفع أمامه عربةَ جوز
وفي الأسطورة الرجلُ الذي يصنع الصّاعقة .
يتقارع الليلُ والنهارُ في بيتي كأسيهما
ويقرضان ساعاتي،
وأنا أحلم بقدم رطبةٍ وخلخال
بقُبلةٍ مستعادة
بيوم طويل في الجبل
بحقيبة منسيةٍ في مقصورة قطار
بضوءٍ رفّ في نافذة قديمة
بوجه مرَقَ من درب طفولتي
بيدٍ سحبت يدي إلى شبابها ثُمّ إلى النّسيان.

يُسمّونها حياة

كأنها رسالة قصيرةٌ
تركها عاشقٌ متعجّلٌ بين دفّتيْ كتاب
كأنها غيمة عبرَت ليلَ القريةِ
ولا أحد رآها .
كأنها ارتعاشةُ ضوءٍ في فنار
كأنها تلويحةُ جنديّ يموت
لرفاقه الهاربين .
كأنها ضربةُ فأسٍ بيد حطّاب
كأنها صفعةٌ على خدّ طفل
كأنها موجة
كأنها برق
هذه التنهيدةُ
التي يسمّونها حياة.

رجل مخفور بالصخور

1

عائدا من حرب مع لا أحد
حيث الحطام فحسب هو ما يحفّني
أخفي الدخان والحسرة في جيوبي
وأعبر الزقاق إلى نهايته
ثم أجلس على مصطبة
أرفع عينيّ إلى مصباح الدرب
المصباح الذي يملك نطرة امرأة حانية
يسألني: "لمَ العتمة أعلى من الضوء؟
لمَ المياه أقل من النار؟
لماذا كلما غابت الشمس
جلس الحزن بمعطفة الرث
ينتحب على قارعة الطريق؟ "

أسبل جفنيّ على ما يشبه الندم
وعلى ما يشبه حزن الموج
على حيتان نفقت
يندلع ظلام شديد بداخلي

فتخرج طيور من كتفي وترهو.

قد أكون الرجل الذي يضع يده في كيس
ويخرج للعابرين ابتسامة
الرجلَ الذي يسحب جارورا
فتنط الحياة منه بثيابٍ راقصة
لكنني أيضا رجل مخفور بالصخور
رجل يرفع يديه إلى السماء
كأنما يريد أن يحضن غيوما
لكنّ قدميه عالقتان في الوحل.

2

هذا أنا كما ترين
حاطبُ صمتٍ
في ليل قمرُه يتألم
جالبُ أرسانٍ من مفازات
بيدٍ لم يعد يمكث فيها شيء.

بصوتٍ مجروح
أردّد أغنيةً رفعها رجل هنديّ
قبل أربعة قرون في الشعاب
وأدفع قطيعا من الكلمات البرية
جهة الغرق.

تغريني عزلة نسر هرم
ينظر هادئا إلى الأيام التي سقطت
من عشه العالي،
وحين تشتد الذكرى
ينأى بهوائه الهادر

مغمضا حواسه عن العالم
كما لو أنه يقيم في جوف صخرة.

3

أودى بي هذا الصمت
وأنهكت الأحلام المرجأة عظامي.
أملك نظرة رجل معقد
يرقب الأيام من زجاج النافذة.
كتب كثيرة قد لا أفتحها
لكنّها تنظر إليّ بشجن
وحين يشتدّ اليأس
تخرج الكلمات لتربّت على كتفي.

الفهرس

* **تقديم**..... 5
* **إضاءات**..... 9

الطريدة الأولى:

الصعود نحو شلالات المعنى

من خلال ديوان "عودة آدم" 17

* شظايا من رصاص البداية 18
1. ماء التأمل..... 19
2. بكائية على حافة الكون..... 22
أ- دائرة الألم..... 22
ب- هواجسٌ من الغربة والشجون..... 24
3. آدم.. الذي قرع باب الحكاية..... 27
4. لقطات من مونتاج شعري..... 31
5. أنفاس ت.س.إليوت في شعر عبد الرحيم الخصار... 36
- انحناءة أخيرة..... 40
- الهوامش..... 41

الطريدة الثانية :

نيران فوق مسرح المجاز 47

1. قبس من نار البدايات..... 48

2. الكتابة بحبر الشمس..... 49
3. ظلال من النيران الخصارية: 52
أ- نار الرحيل..... 52
ب- السقوط في دائرة الوجع..... 54
ج- ارتجاف الذات بين حرائق الوطن..... 56
د- معزوفة التيه..... 63
4. عباءة الذات المطرزة بأنين الوجود..... 65
• خاتمة..... 68
• الهوامش..... 70

الطريدة الثالثة :
عطر الحنين 75

• شيء من فاتحة الاستهلال..... 76
1. عطش لا يرويه الحنين..... 77
2. نواح على صدر العشق..... 81
3. قهوةٌ مُرَّةٌ من فنجان الرحيل..... 85
4. شِبَاكٌ تشرق فيها أزهار المعنى..... 88
1- شظايا تخترق السرائر..... 88
2- بؤرة ضوء..... 93
• خاتمة..... 98
• هوامش..... 99

105

الطريدة الرابعة:

محبرة الظلال

1. نوتات من لحن الاغتراب..... 106

2. عزف يغازل أوتار الكمان..... 110

أ- حلم مبلل بالمطر..... 114

ب- إغفاءة أمام باب الليل..... 118

3. ملامح من أنفاس منهكة..... 124

- خاتمة..... 125
- الهوامش..... 126
- طريدة النهاية..... 128
- سنابل من حقل الشعر..... 130
- الفهرس..... 141

المطبعة والوراقة الوطنية
IMPRIMERIE PAPETERIE EL WATANYA
زنقة أبو عبيدة الحي المحمدي الداوديات
مراكش - الهاتف : 74 37 30 24 05 - 91 25 30 24 05
e-mail: iwatanya@gmail.com 05 24 30 49 23 الفاكس :